الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال العصر العثماني
(دراسة تاريخية)

د/ سامح إبراهيم عبد الفتاح عبد العزيز
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر بالمنصورة

ملخص البحث :

يتناول البحث الممارسات العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية البرية خلال العصر العثماني خلال مدونات الرحالة أنفسهم.

فهناك عدد من العلماء رحلوا ضمن القوافل، ودونوا مذكراتهم ومشاهداتهم عن الطريق أثناء السير أو التوقف في المحطات، فتركوا لنا كمًّا زاخرًا من المعلومات انصب جلها على الأنشطة العلمية من التدريس وحضور مجالس العلم في محطات القوافل، وزيارة العلماء والفقهاء في بيوتهم وما وقع من مناظرات بينهم خلال هذه اللقاءات وما تحصلوا عليه من أسانيد، وما أنجزوه من مصنفات تتوافق مع فريضة الحج وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

فمدونات هؤلاء الحجاج وثيقة علمية تضمنت أنواع الأنشطة العلمية وأسماء العلماء الذين خرجوا مع الركب، وعلماء المراكز العلمية، كما أوضحت أنواع العلوم وأسماء الكتب التي تصلح للتدريس أثناء السفر والمؤلفات أنجزوها والتي يتم شرحها في دروس نظامية لطلاب يستكملون مسيرتهم العلمية ويستثمرون الوقت الطويل الذي يقطعونه في الرحلة صحبة شيوخهم، إضافة إلى دروس دعوية لعموم الحجاج في تعليم مناسك الحج والعمرة وآداب الزيارة ليصبحوا مؤهلين لتأدية الفريضة.

وبذلك تصبح القافلة وكأنها مدرسة متنقلة على الطريق تتوفر لها أدوات ووسائل العلم ويتسابق الطلاب والعلماء في نشاط دائب يتعبدون في محراب العلم وهم متلبسون بفريضة الحج يجمعون مع شرف طلب العلم شرف الزمان والمكان.

الكلمات المفتاحية(عربي): الحركة العلمية – قوافل الحج المغربية – العصر العثماني.

Scientific Movement Accompanying Moroccan Pilgrims Convoys during Ottoman Era (Historical Study)

Dr. Sameh Ibrahim Abdel Fattah Abdel Aziz
Assistant Professor of Modern and Contemporary History / Faculty of Arabic Language,
Al Azhar University, Mansoura

Keywords (Arabic): Some scholars – Moroccan pilgrimage caravans– Ottoman era)

Research Summary (English)

The Research addresses the scientific practices accompanying the overland Moroccan Pilgrims Convoys during the Ottoman Era through the blogs of the travelers themselves.

Some scholars traveled in the Convoys and wrote down their diaries and observations on the road while walking or stopping at the stations, leaving us with a plenty of information, most of which focused on scientific activities such as teaching, attending science councils at Convoys stations, visiting scientists and jurists in their homes, and the debates that took place among them during these meetings, the evidence they obtained, and the compilations they accomplished in line with the obligatory Hajj and a visit to the Mosque of the Prophet (May God Bless Him And Grant Him Peace).

Blogs of these pilgrims constitute a scientific document that included the types of scientific activities and the names of the scientists who accompanied the people, the scientists of the scientific centers, as well as the types of science and the names of books that are suitable for teaching while traveling and the books they authored and explained in regular lessons for students who complete their scientific path and invest the long time they spend on the journey with their leaders, in addition to religious lessons for all pilgrims in teaching Hajj and Umrah rituals and the etiquette of the visit, so that they become qualified to perform the same.

Thus, the Convoy seems to be a mobile school on the road having the tools and means of knowledge. Students and scholars compete in constant activity and receive education in their way to perform Hajj, and they combine between the honor of seeking knowledge and the honor of time and place.

المقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على أشرف النبيين وخاتم المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،،

عكف كثير من المؤرخين على دراسة الحياة السياسية في البلاد العربية خلال العصر العثماني وأغفلوا في المقابل الأنشطة العلمية والثقافية التي صورها لنا المؤرخون الغربيون على أنها كانت جموداً، جاء بعده الاحتلال الغربي برسالته الحضارية التي عمَّرت هذا الخراب؛ وإن كنا لا ننكر التراجع الذي أصاب الثقافة العربية الإسلامية تلك الفترة لا سيما في العلوم التجريبية كالرياضيات والكيمياء إلا أن العلوم الشرعية والعربية (علوم الجادة في ذلك العصر) كانت واسعة الانتشار مع أن العثمانيين لم يطوروها كما إنهم لم يعوقوها.

إن التاريخ الثقافي في الولايات العربية إبان العصر العثماني قد طاله كثير من التشويه؛ بسبب اعتماد مؤرخينا على المصادر الأجنبية دون تمحيص، وإهمال مصادرنا العربية البعيدة عن هيمنة الفكر الغربي، والتي كتبها أصحابها خلال ذلك العصر خاصة المخطوط منها، ومن بين هذه المصادر مدونات الرحالة المغاربة المعاصرين، وهي تشتمل على قدر كبير من المعلومات التاريخية والجغرافية عن بلادهم والبلاد التي مروا بها في طريق ذهابهم وعودتهم لأداء فريضة الحج، بالإضافة إلى تفاصيل الأنشطة العلمية على طريق الحج المغربي؛ وصفوا فيها المراكز العلمية بما تحويه من مؤسسات ومدارس تنتظم فيها الدروس في الحلقات ويتم خلالها النقاش، وتمنح فيها الإجازات، وتؤلف المصنفات، وتتوثق الأسانيد، فهي تجارب الرحالة ومن رافقهم من أهل العلم.

ويلاحظ إبداع المغاربة في تدوين الرحلات الحجازية خاصة، فهناك عدد كبير من العلماء والكتَّاب رحلوا إلى الحج ودونوا مذكراتهم ومشاهداتهم عن الطريق، وما حدث خلال السير فيه وما دار أثناء مقامهم بكثير من المحطات تدويناً مفصلاً، فتركوا لنا كمًّا زاخرًا من المعلومات الأساسية عن الأنشطة العلمية سواء ما كان يحدث منها أثناء سير الرحلة أو عند التوقف في المراكز العلمية التي مروا بها.

كما إن هناك رحلات علمية خالصة، كان الدافع لصاحبها هو طلب العلم مثل: رحلة ابن عابد الفاسي الذي خرج في العشرين من عمره يطوف على مشايخ المراكز العلمية بداية من مراكش وطنجة وتونس والقيروان ومصر وبلاد الحجاز، واستقر به المقام في حضرموت من بلاد اليمن(١).

ولأن هؤلاء الرحالة من أهل العلم والشأن السياسي لا يلامس رحلاتهم الدينية والعلمية بشكل مباشر، فإن أخبار العلماء والفقهاء والطلاب وحراكهم العلمي مبثوث في كتاباتهم بشيء من التفصيل، فالممارسات العلمية من تدريس وتصنيف وقراءة ومناظرات ومناقشات وسماع الروايات وجمع الأسانيد وحمل الإجازات ونسخ المخطوطات وجمع المصنفات العلمية أثناء السير في الطريق من وقت خروجهم حتى عودتهم، كما ضمت نصوصًا كثيرًا من الإجازات التي حصل عليها هؤلاء من شيوخ المناطق التي مروا بها أو التي أجازوهم بها، وهي مصدر معين لمن يؤرخ للحركة العلمية بما اشتملت عليه من أسماء العلماء، وأنواع العلوم والمؤلفات، وطرق التحمل، وغير ذلك من المعلومات التي لا غنى عنها، والتي لا تكاد توجد بهذا الزخم في غيرها من المصادر التاريخية الأخرى(٢).

لا شك، إن الأنشطة العلمية على الطريق كانت متفاوتة من رحلة إلى أخرى حسب عدد من خرج فيها من العلماء ومدى اهتمامهم بالتدريس والتلقين والتأليف، فالسفر للحج فرصة لالتقاء العلماء بالطلاب في رحلة دينية علمية يعايش بعضهم بعضًا ويلتقون بأقرانهم من علماء ومشايخ الطريق؛ يحضرون مجالسهم لفترة تطول أو تقصر، يستفيدون ويفيدون تدريسًا وتأليفًا ومناظرة وإجازة، فالرحلات وثيقة علمية وسجلات تاريخية، تضمنت أسماء العلماء والفقهاء الذين خرجوا من بلاد المغرب، وأسماء علماء وفقهاء المناطق التي مروا بها والذين التقوا بهم على الطريق في : الجزائر – تونس – طرابلس الغرب – مصر – بلاد الحجاز، وأحياناً بلاد الشام.

---

(١) يوسف بن عابد بن محمد الحسيني الفاسي المغربي (ت ١٠٤٨هـ): رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت، حقق نصها وعلق عليها: إبراهيم السامرائي، عبد الله محمد الحبشي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت ، لبنان، ١٩٩٣م، ص ٦.

(٢) عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار من تأليف سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني ١١٢٥-١١٩٣ (هجري)، دراسة تم إعدادها لمؤتمر جامعة فيلادلفيا، الأردن حول "ثقافة التواصل،" نوفمبر، ٢٠٠٩، ص ٩.

كما أوضحت أنواع العلوم التي تصلح للتدريس أثناء السفر وأسماء الكتب والمؤلفات التي يتم شرحها للطلاب على هيئة دروس علمية نظامية في الفقه والحديث والتفسير حتى يستكملوا مسيرتهم العلمية ويستثمروا الوقت الطويل الذي تستغرقه الرحلة صحبة مشايخهم وأقرانهم، هذا بخلاف الدروس الوعظية والدعوية، بالإضافة إلى قراءة الأوراد القرآنية والأذكار الراتبة لعوام الحجاج؛ لتعليمهم مناسك الحج والعمرة وآداب زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وحثهم على الطاعة والأخلاق الحسنة ليصبحوا مؤهلين لتأدية الفريضة التي يصعب على أحدهم أن يرجع إليها مرة أخرى في حياته؛ نظرًا لبعد الشقة وصعوبة السفر وقلة أدواته ووسائله[١].

كما زودنا الرحالة بكثير من المعلومات عن لقاءاتهم وزياراتهم للعلماء في بيوتهم يتناقشون معهم في المسائل ويناظرونهم في النوازل، ويتبادلون الخبرات وينقلون نوادر المخطوطات.

كما كان وجود العلماء المغاربة ضمن الركب فرصة لمن لم يقدر على الرحلة إليهم من أهل البلاد التي يمرون بها، فيجد ضالته بالجلوس بين أيديهم في هذه الأيام القليلة أو السويعات البسيطة التي يقيمون فيها ببلادهم، ولذا نجد عبارة " وتثقف بالوافدين عليها " موجودة في تراجم الكثيرين من المشايخ في طرابلس الغرب، فكانوا كما وصفهم الورثيلاني: "إذا شموا رائحة المعرفة في أحد سعوا إليه" [٢].

والجدير بالذكر أن النشاط العلمي ظل ملازماً لقوافل الحج المغربية من وقت خروجها إلى عودتها بطريقة مرتبة منظمة حسب خطة موضوعة مسبقاً في بعض الأحيان، فالركب

---

(١) يذكر العياشي أن الركب المرافق له ضم وجوه الناس من العلماء والفقهاء والمؤذنين وأنهم كانوا يختمون القرآن كل ليلة ختمة في أخبيتهم بخلاف الحزب الراتب. أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي: (١٠٣٧– ١٠٩٠هـ / ١٦٢٨– ١٦٧٩م): الرحلة العياشية (١٦٦١ – ١٦٦٣م)، تحقيق: د / سعيد الفاضلي، و د/ سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، أبوظبي الإمارات، ٢٠٠٦م، ١/ ١٦٠.

(٢) حسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، أو الرحلة الورثيلانية، تصحيح : محمد بن أبي شنب، مطبعة بيرفونتانة الشرقية، الجزائر، (د – ت)، ص ١٩٧.

المصاحب لابن عبد القادر الفاسي[١] بدأ النشاط العلمي له منذ خروجه من مدينة فاس ولم يتوقف حتى عودته إليها[٢].

وأما عن فرضية هذا البحث وإشكاليته، فهو يجيب عن عدة أسئلة منها: لماذا تنشط الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربي خلال العصر العثماني؟ وما أنواع الأنشطة العلمية التي مارسها الحجاج على الطريق؟ وسوف يجيب البحث عن هذه التساؤلات من خلال التمهيد والمباحث التالية:-

التمهيد : عوامل ازدهار الحركة العلمية على طريق الحج المغربي:

هناك مجموعة من العوامل التي أدت إلى ازدهار الحركة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال فترة الدراسة منها.

١- اشتمال هذه القوافل على عدد كبير من العلماء والطلاب الذين فضلوا مواصلة مسيرتهم العلمية على طريق الحج وفي منازله بشكل شبه منتظم، الأمر الذي يجعلنا يمكن أن نتصور في بعض الرحلات أنها كانت بمثابة مدارس متنقلة طرق أبوابها الطلاب والعلماء والتقوا في رحابها، فأسهمت في تعميق ثقافتهم، وأنتجوا التراث الماثل بين أيدينا نستقي منه ونعتمد عليه في دراستنا التاريخية[٣].

---

(١) أبو العباس أحمد بن عبد القادر الفاسي: فقيه ومدرس كان حياً سنة ١٢١١ هـ/ ١٧٩٦م، من بيوت فاس العلمية، تتلمذ على علماء عصره، ثم رحل إلى المشرق وطلب العلم في الأزهر، رافق الثعالبي في مجلس الخفاجي، وهو صاحب الرحلة المنسوبة إليه من فاس إلى الحجاز. أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي: رحلة من مدينة فاس إلى مكة والمدينة (سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٦ – ١٧٩٧م)، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٥٤ جغرافيا، ميكروفيلم ٧٥٢٦، عبد النبي بن المجدوب بن عبد الحفيظ بن أبي مدين الفاسي، لوحة ٤٦ / أ، ب ؛ محمد عبد الحَيّ بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي، الكتاني (ت: ١٣٨٢هـ): فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢ م، ٢/ ٧٠٨.

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٣ / ب .

(٣) خرج مع العياشي قاضي مراكش الشيخ أحمد الخطيب، بينما ضمت رحلة الفاسي مجموعة من العلماء منهم الفقيه محمد بن عبد السلام الناصري، وأما رحلة الإسحاقي، فضمت الفقيه بلقاسم بن سعيد العميري وغيره. العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٣٣١؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق ، لوحة رقم ١٤٩ /ب؛ الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٥٩.

٢- بُعْد المسافة التي يقطعها الركب من المغرب الأقصى إلى الحرمين الشريفين في الذهاب والعودة وطول المدة الزمنية التي كان الطريق يستغرقها الأمر الذي حدا بأهل العلم من الحجاج استثمارها في التدريس والتأليف وحدا بالطلاب استثمارها في التحصيل حتى لا يفوت هذا الوقت الطويل بلا فائدة[١] وحتى يحافظ أهل العلم على المداومة في الطلب لا ينقطعون عنه[٢].

٣- مرور الركب المغربي بكثير من الحواضر العلمية المشهود لها في الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، ومصر، وبلاد الحجاز، مما أتاح لهم فرصة لقاء مشاهير العلماء فيها، على أن اللقاء الأعظم في الحرمين الشريفين؛ إذ يجتمع فيهما العلماء من كل بلاد المسلمين، فالرحالة كانوا يستعدون ويتأهبون للقاء هؤلاء، ويحرصون على مجالستهم، قال العياشي: "وأعددت لفوائد الرحلة عددًا كثيرة، فاتسع المجال في لقاء الرجال، ومذاكرة الإخوان في كل أوان، ومحاضرة الأدباء، ومجالسة الظرفاء"[٣].

٤- كما إن اهتمام الرحالة بالعلم على طريق الحج كان له دوافع شرعية، فهم يحتسبون الأجر ويتواصون بإخلاص النية في الطلب قال الورثيلاني عن آداب الحاج : "وينوي إغاثة المضطر ما أمكنه بماله أو جاهه وأن يعلِّم الجاهل إن كان من أهل العلم أو يسأل العالم إن كان جاهلاً" [٤] .

٥- نظرة الاحترام والقداسة المتوارثة للمشرق الإسلامي في نفوس أهل المغرب، حيث استقر في أذهانهم أهمية الأخذ عن علماء هذه الجهة التي جاءهم الإسلام وتعلموا لغته وعلومه منها حتى أنهم أحسوا أن علومهم لا تتعمق وترسخ إلا بمخالطة علماء المشرق

---

(١) كانت الرحلة من الجزائر تستغرق فقط في الذهاب ما بين خمسة إلى ستة أشهر. عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية...، مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) كان أهل العلم يتواصون فيما بينهم بعدم التوقف عن التدريس. العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١٧٤ .

(٣) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٥٣ .

(٤) الورثيلاني : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٤٦.

والاطلاع على تراثه وكتبه[١]، هذه النظرة عمقها علماء المغرب في أذهان المقبلين على الحج، ذكر الإسحاقي[٢] أن العلامة محمد بن أبي بكر الدلائي خطيب المسجد الكبير في فاس خطبهم بمناسبة توديع الركب وحثهم على العلم وشوقهم للمعاهد العلمية في المشرق حتى "هفت نفوسهم وذرفت عيونهم جميعاً شوقاً"[٣].

٦- اقتداء اللاحق من المغاربة بالسابق، حيث حرص طالب العلم على الاستزادة من العلوم في طريق الحج وهو متجه إلى الحرمين الشريفين أو متلبس بفريضة الحج، لتحصيل التأسي والاقتداء بأسلافه من العلماء، كما صرح بذلك المقري في قوله: "واقتفيت في ذلك سنن بعض سلفي الأخيار" [٤].

٧- الحرية التي كفلتها الدولة للعلماء في الحركة والتنقل والتدريس والإفتاء ونشر العلم في مختلف الولايات الخاضعة لها سواء من رعايا السلطان أو من غيرهم من العلماء المسلمين المشهود لهم بالعلم والبعيدين عن إثارة الفتنة وهو ما يجب أن يقف عنده المؤرخون ملياً، ويعيدوا صياغة ما كتبوه عن تلك الفترة من التاريخ الإسلامي الحديث التي طالما نعتوها بالظلم والاستبداد[٥].

---

(١) أبو القاسم سعد الله: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المجلد الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م، ص ١٤٩؛ إمحمد قرود : الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق العربي في القرن ١١هـ / ١٧م، من خلال ثلاثة نماذج : أحمد المقري، عيسى الثعالبي، يحي الشاوي النائلي، مذكرة غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تخصص العلاقات بين المشرق والمغرب في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢، العام الجامعي ١٤٣٠-١٤٣١هـ / ٢٠٠٩ - ٢٠١٠م، ص ٧١.

(٢) محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي : ينتسب لآيت إسحاق، كان كاتباً للمولى إسماعيل العلوي ومن رجاله المقربين، حج عدة مرات آخرها عام ١١٤٣هـ مع الأميرة خناثة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل وأم ولده السلطان عبد الله ومعها حفيدها الأمير محمد بن عبد الله . يراجع. محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي: الرحلة (سنة ١١٤٣هـ) " صحبة الأميرة خناثة بنت بكار زوجة مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى " مخطوط بالخزانة الملكية بالقصر الملكي في مدينة الرباط، المملكة المغربية، تحت رقم ١١٨٦٧، ص ص ١٥٦ – ١٦٠؛ الكتاني: فهرس الفهارس...، مصدر سابق، ٢/ ٩٣٥، ١١٥٧.

(٣) الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٢٦.

(٤) أحمد المقري: مقتطف من أزهار الرياض في أخبار عياض، ج ١، مخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر، محفوظ تحت رقم ٢٩٦١، لوحة ٣.

(٥) إمحمد قرود : الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ١١٦.

٨- عنايتهم العامة بوصف كل مظاهر الحياة وجوانبها على طريق الحج؛ لتكون عُدَّة وذخراً ينتفع به الحجاج والرحالة اللاحقين، حتى إن بعضهم أفرد هذا الغرض بمؤلف خاص مثل العياشي في كتابه: "التعريف والايجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز" والحياة الثقافية كانت من أولويات ما وصفوه ضمن هذه المظاهر[١].

المبحث الأول : التدريس على طريق الحج المغربي وفي منازله:

اقترن النشاط العلمي بالركب المغربي منذ الوهلة الأولى عندما يخرجون من بلادهم، فبيئة العلم مهيأة بصورة كبيرة، حيث يضم الركب المتخصصين من فقهاء ومحدثين ولغويين ومؤرخين ومعهم طلابهم الذين خرجوا للحج يحملون أدواتهم الدراسية، والوقت طويل لا يشغلهم عن بذل العلم لهم شاغل، ويمرون بالمراكز العلمية العتيقة يتزودون بما يحتاجون من المؤلفات، وشملت الحركة العلمية غير المتخصصين من عوام الحجاج، حيث رتبت لهم كتب تسرد على مسامعهم في السُنَّة والشمائل النبوية، وحلقات قرآنية كانوا يتابعون فيها تلاوة القرآن وبعض الأذكار بصورة دائمة لا ينقطعون[٢].

أ- التدريس على طريق الحج المغربي:

من الجدير بالذكر، إن الركب المغربي ضم بين أفراده بعض العلماء الذين برعوا في كثير من العلوم ومعهم طلابهم الذين يدرسونهم في الطريق، كما بلغ خبرهم طلاب العلم في المشرق، لكن بُعد الشُقة حال بينهم وبين التتلمذ علي هؤلاء الأعلام، فلما مروا بهم في طريق

---

(١) أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي : (١٠٣٧- ١٠٩٠هـ / ١٦٢٨- ١٦٧٩م): التعريف والايجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز، مخطوط بالخزانة العامة في الرباط، المملكة المغربية، ضمن مجموع تحت رقم ٤٣ ك.، والعياشي مر على الطريق عدة مرات، وهو يؤدي فريضة الحج في سنوات ١٠٥٩ هـ/١٦٤٩م، ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٣م،١٠٧٣هـ/١٦٦١م، وسجل رحلته التي جمعت مشاهداته فيها جميعاً وجل من جاء بعده نقل عنه، ولذا فهي من أهم مصادر الدراسة العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٩.

(٢) لا شك أن هذه الفترة كان الحجاج المغاربة وغيرهم يمارسون بعض الأشياء غير المتوافقة مع المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم فوجب التنبيه وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم.

ذهابهم وعودتهم للحج خرجوا واستقبلوهم ورحبوا بهم [١] واغتنموا الفرصة وجلسوا بين أيديهم وتلقوا عنهم ما تخصصوا فيه واشتهروا به من العلوم، وطلبوا منهم الإجازة، ومع ضيق الوقت إلا إن أغلب هؤلاء العلماء أجابوهم وشاركوا في حلقات الدرس[٢].

وقد بدأ العلماء المغاربة تدريسهم على طريق الحج من وقت خروجهم مباشرة لطلابهم، فالقاضي أحمد الخطيب المراكشي قاضي مراكش الذي كان مرافقاً للعياشي، والفقيه محمد بن عبد السلام الناصري الذي كان مع الفاسي، والشيخ بلقاسم بن سعيد العميري وكان مع الإسحاقي وغيرهم ممن يصعب حصرهم قطعوا الطريق ذهابًا وإيابًا يدرِّسون طلابهم المرافقين لهم[٣].

ونظراً لظروف الترحال والنزول، فإن التدريس أثناء السير على الطريق اتجه في معظمه ناحية طريقة السرد التي تتناسب وطبيعة السفر والفريضة التي يتلبسون بآدائها، فلم تكن هناك فرصة لجلوس الطلاب حول شيخهم في حلقات علمية يقوم التدريس فيها على التفصيل والمناقشة والنقد والتحليل، فاختاروا طريقة السرد بتلاوة بعض الكتب مع الشرح البسيط لها، ومن الكتب التي كان الحجاج يسردونها فرادى أو جماعات على الطريق كتاب : الشمائل للترمذي وفيه تذكير بشمائل النبي صلى الله عليه وسلم للحجاج قبل زيارته لمعرفة حقه، بدأه الركب المرافق لابن عبد القادر الفاسي عند خروجهم من طرابلس متجهين ناحية المشرق وختموه مع وصولهم بنغازي[٤].

---

(١) نال هؤلاء العلماء مكانة طيبة في المراكز العلمية وحازوا احترام حكامها حتى إن يوسف باشا القرمانلي والي طرابلس الغرب كان يخرج بجنده ليرحب بهم، وكذلك خرج والي مصر العثماني ومن حوله الأعيان والعلماء لاستقبالهم وتقديم الهدايا لهم. ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٢٢ / أ ؛ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م، ١/٦١.

(٢) ربيعة قريزة : علماء جزائريين بمصر في الفترة العثمانية (القرن ١١– ١٢هـ/ ١٦– ١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢ ، ٢٠١٠ – ٢٠١١م، ص ٢٣.

(٣) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٣٣١؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق ، لوحة رقم ١٤٩ /ب ؛ الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٥٩.

(٤) بنغازي مدينة تقع غربي مدينة طرابلس على مسافة كان الركب يقطعها في ١٤٠ ساعة بالسير المعتاد، كانت زمن الدراسة ذات بناء متسع لكنه غير متقن وفيها ميناء ترسو فيه السفن القادمة من طرابلس وتونس وغيرها من بلاد الدولة العثمانية تأتيه بالفواكه والسلع، وأرضها أرض زراعة وتربية ماشية وأهلها وقتئذٍ كانوا يميلون إلى البداوة. ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، (٢٧ / أ).

ويبدو أن كتاب الشمائل من الكتب التي كانت تلازم الركب المغربي في ذهابه وعودته، وهو يناسب الحج وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ففي العودة كانوا أيضاً يداومون على قراءته، كلما انتهوا منه، استأنفوه من جديد إذ يذكر ابن عبد القادر أنهم استفتحوا سرده في العودة عند خروجهم من مصر وختموه في قصبة أولاد علي على حدود مصر الغربية مع ولاية طرابلس الغرب[١].

والظاهر أن الغرض من تكرار سرد الكتاب وترديده على الطريق هو تثبيت حفظه حتى إذا تيسر الأمر في أحد المراكز العلمية تدارسوه مثلما عقد العياشي له مجلساً لشرحه في المسجد النبوي بجوار صاحب الشمائل صلى الله عليه وسلم مستعيناً بشرح المناوي على الكتاب وهو شرح مبسط يناسب الحال، قال العياشي : "وهو من أحسن ما رأيت من الشروح"[٢].

وأما صحيح البخاري فهو أهم الكتب التي عني بها علماء الركب المغربي يستمرون في سرد متنه والتعليق عليه وقراءة بعض شروحه واستنباط الأحكام منه طوال الطريق، وكان يوم ختمه يوماً مشهوداً يقيمون حفلاً يليق بالصحيح، فالشيخ محمد بن عبد السلام بن ناصر انتهى من البخاري وهو في واحة سيوة المصرية على طريق القدوم من المغرب واجتمع له أعيان الركب يتقدمهم شيخه وكبار الشخصيات وكثير من الطلاب، وبدأت مراسم الاحتفال بتعليقات للشيخ ضمنها الكثير من الفوائد الفقهية واللغوية ثم ختم بالدعاء[٣].

والجدير بالذكر أنهم لم يتوقفوا عن قراءة البخاري حتى في المنازل التي كانوا يستريحون فيها ولو ليوم واحد، وكان بعض أهل العلم في المحطات المذكورة يحضرون معهم وربما علَّق أحدهم بشرح أو خلافه، مثلما حدث في توزر عاصمة بلاد الجريد في الجنوب التونسي حيث حضر طلاب المدينة ومعهم بعض الفقهاء عند ركب الإسحاقي في يوم إقامتهم وشاركوهم

---

(١) إذا علمنا أن خروجهم من القاهرة كان يوم ٩ جماد الأولى ١٢١٢هـ ، ووصولهم عند قصبة أولاد علي يوم ٥ جماد الآخرة ١٢١٢هـ، فإن هذا يعني أن سرد الشمائل كان يستغرق حوالي ٢٧ يوماً لا تزيد. ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، (٢٦ / أ)؛ (١٢٩/ أ).

(٢) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٢٨ .

(٣) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، (٤١/ب – ٤٢ / أ).

قراءة الصحيح وكان الإسحاقي هو الذي يسرده ويعلق عليه من فقهاء توزر المذكورة الفقيه محمد بن منصور التوزري[١]، ثم واصلوا تلاوته فلما نزلوا مصراتة[٢] توافق أنهم بلغوا : باب الحج، فتعمدوا مواصلة القراءة عند علمائها حتى يثبت لهم أجر السماع منهم[٣].

ومن هنا يتضح أهمية كتب الحديث عامة وصحيح البخاري خاصة لطلاب العلم وعموم الحجاج على الطريق للتفقه في مناسك الحج والعمرة قبل التلبس بهما وغير ذلك من أعمال الزيارة.

ومن أهم الشروح التي عني بها المغاربة على البخاري لفهمه أثناء الرحلة شرح القسطلاني وإذا لم تكن جميع أجزاء الكتاب متوفرة معهم ربما استعاروه في الطريق، حيث طالعنا الإسحاقي بأنهم استعاروا جزءًا من هذا الشرح من الفقيه محمد منصور سابق الذكر في توزر على أن ينتهوا منه في المسافة بين توزر وبين طرابلس ثم يردونه لصاحبه مع القوافل العائدة من هناك[٤].

وفي هذا دليل على ندرة هذا الكتاب وقلة عدد النسخ المتوفرة منه، كما يدل على همة العلماء والطلاب العالية في هذه الرحلة خاصة إذا علمنا أن المسافة المذكورة تقطع في عدة أيام فقط.

ومن الكتب التي كانوا يعتنون بها في الطريق شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النحو؛ فالإسحاقي ومن معه في الرحلة كانوا يسردون هذا الشرح ويتناقشون في مسائله على الطريق فلما اختلفوا في بعض المسائل أجَّلُوا النقاش حتى يصلوا القاهرة ويطرحوها على نحاة الجامع الأزهر[٥].

---

(١) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٢) مسراتة أو مصراتة: مدينة ليبية تقع على مسافة ٢١٥ كم شرق طرابلس، وهي مركز علمي سكنها الشيخ زروق وفيها مساجد عامرة بالدروس، وقد اشتهر أهلها بالنشاط التجاري. ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، (٢٨ / أ)؛ الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي: معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، ط ١، طرابلس، ليبيا، ١٣٨٨ هـ –١٩٦٨م، (ص: ٣١٧).

(٣) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١٠٦.

(٤) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٥) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١٥٧.

من بين الأنشطة العلمية التي تلازم عموم الحجاج المغاربة على طريق الحج تلاوة القرآن والأذكار وبعض الأدعية وهو نشاط علمي وديني كان يناسب حالة السفر لهذه الشعيرة بحيث يستطيع الراكب على دابته أن يحدد له ورداً من القرآن الكريم أو كتب الأذكار يقرأه بطريقة مرتبة كلما انتهى من قراءة ختمة بدأ غيرها، يذكر العياشي أن الحُجَّاج في الركب المرافق له كانوا يختمون القرآن كل ليلة ختمة في أخبيتهم بخلاف الحزب الراتب [١].

ويحدد ابن عبد القادر الفاسي، في استفتاح رحلته القَدْر الذي يقرأه الحاج من القرآن طوال مرافقته للركب في الذهاب والعودة، حيث لا يقل وِرْد الركب كل يوم عن حزب في الصباح ومثله بعد صلاة المغرب، يتخللهما أوراد وأذكار مرتبة يزاد عليها وينقص منها في بعض مراحل الطريق[٢].

ب– التدريس في منازل ومحطات الطريق:

إذا رافقنا الركب المغربي نجده يمر بمجموعة من المركز العلمية المهمة ينزل الحجاج بها، كلٌ يبحث عن غايته، وأن أهل العلم ركزوا في نزولهم على المدارس والمساجد التي كانت تتأهب لاستقبالهم يلتقون فيها العلماء وينتظرهم الطلاب ممن لم تتح له فرصة السفر للأخذ عنهم في بلادهم، فيغتمون هذه السويعات القليلة أو الأيام المعدودة في ذهابهم وإيابهم، يلقون عليهم بعض الدروس[٣]. ففي الجزائر نزلوا وادي خالد ببلاد الزاب[٤]، وبسكرة[٥]،

---

(١) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١٦٠.

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق ، لوحة رقم ٤ / ب ، ٥ /ب .

(٣) الجدير بالذكر أن النابغين من علماء المغرب كانت لهم مكانة في نفوس علماء وطلاب المشرق يتجلى ذلك من كلام أبي راس : "وفي سنة أربع ومائتين وألف، ذهبت إلى الحج، فقامت لي علماء المشرق على ساق" محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس : فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق : محمد بن عبد الكريم الجزائري، المكتبة الوطنية للكتاب، الجزائر ، ١٩٨٢م، ص ١١٠.

(٤) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحات (٨ / أ – ٩ / ب).

(٥) الورثيلاني : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ١١٥، ١٢٢.

وقسنطينة[١]، وتلمسان[٢]، وعقدوا بعض اللقاءات في مساجدها وألقوا الدروس وأحسن الطلاب استقبالهم وأبدوا استعدادًا وحرصًا على الاستفادة من وجودهم، وفي تونس كانوا ينزلون جامع الزيتونة الشهير يصلون فيه ويلتقون بالعلماء ويجلس لديهم الطلاب أمثال القاضي محمد الطوبي والشيخ مصطفى الواردي الحنفي وكلاهما من الخطباء المفوهين أثنى ابن عبد القادر على علمهما وبلاغتهما [٣].

كما كانت مدينة توزر عاصمة بلاد الجريد في الجنوب التونسي ضمن منازل الركب التي يلتقون بطلاب العلم فيها، فالإسحاقي يذكر أنهم لما مروا بها دخلوا أحد مساجدها الصغيرة غير الجامعة وجدوا حلقتين الأولى للفقيه محمد بن منصور، والأخرى للفقيه السيد بو رمضان فتكلموا معهما وأثاروا بعض المسائل في الفقه والنحو وعندها تصدَّر لهم من علماء الركب الفقيه العربي بن محمد يدرِّسهم ويجيبهم عما يريدون[٤].

والجدير بالذكر أن عناية علماء طرابلس بالفقهاء المغاربة المرافقين للركب كانت فائقة مثل الشيخ محمد بن عبد السلام بن ناصر الذي حاز عنايتهم وخصوه بحفاوتهم فالتف طلابهم حوله وظلوا ملازمين له مدة إقامته بالمدينة يستفيدون من علمه حتى ودَّعوه وكان من آخر أهل الركب خروجاً بسبب انشغاله معهم الأمر الذي علق عليه ابن عبد القادر بقوله: " إذ لا ينبغي إهمال مثل هذا الفقيه المذكور وعدم الاعتناء به"[٥].

---

(١) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٥٧/أ ، ب.

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٦١ / ب. وتلمسان كانت حاضرة من أهم حواضر الثقافة الإسلامية في الغرب الجزائري طوال العصر العثماني، وهي قريبة من البحر المتوسط في أقصى الشمال الغربي من البلاد، على الحدود الجزائرية المغربية، وإلى الجنوب الغربي من وهران، مثلت نقطة تنازع بين السعيديين في المغرب الأقصى والعثمانيين، محمد بن عمرو الطمار: الروابط الثقافية بين تلمسان والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣م، ص ٢٣٨ .

(٣) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٥٣ / ب، ١٥٥ / ب.

(٤) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٥) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، (لوحة رقم ٢٣ / ب).

وأما مصر التي كانت قبلة العلم في ذلك العصر، فقد استهوت النابهين من علماء الركب للتدريس؛ فنالوا شهرتهم في أزهرها ومدارسها الأخرى، من هؤلاء المقري[١] الذي نزل بها لأول مرة في طريقه إلى الحج ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م، ومارس التدريس في الإسكندرية ورشيد، وأعجب بالقاهرة أيما إعجاب، وأقام بها شهرين زار خلالهما الأزهر، فلفت أنظار أهل العلم إليه بحافظته القوية وعلمه الغزير، وتصدر في الجامع الأزهر لتدريس العقائد وعلوم الحديث، فلاقت دروسه إقبالاً شديداً من الطلاب والعلماء على حد سواء ولما اقترب موسم الحج سافر إلى الحجاز[٢].

وبعدما أدى فريضة الحج تألق نجمه في حلقات التدريس بالحرمين الشريفين ثم عاد إلى القاهرة في المحرم ١٠٢٩هـ / يناير ١٦٢٠م، ولازم تدريس صحيح البخاري مرة ثانية بالأزهر، وظل يتردد بين مصر وبلاد الحجاز حتى اكتمل له خمس حجَّات عاد بعدها إلى القاهرة ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م واستقر في الأزهر[٣].

وذكر الطيب الفاسي أنه أثناء مروره بالقاهرة في طريق العودة ١١٤٠هـ – ١٧٢٨م، حضر لهم جماعة من طلاب العلم بالقاهرة وأحضروا مجموعة من الكتب منها : "الشمائل المحمدية " و "الأربعين النووية" ليقرأها بمسجد الغورية، فاجتمع الطلاب في درس حافل، وفي

---

(١) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني المغربي ينحدر من أسرة علمية عريقة ولد في حدود عام ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨م ونشأ في تلمسان ثم رحل إلى فاس، وأقام بها خمس سنوات، تقلب خلالها بين التدريس والإفتاء، ومر بمصر في طريقه للحج عام ١٠٢٨هـ، له عدة مؤلفات أهمها نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وكتاب الرحلة إلى المشرق والمغرب. ربيعة قريزة : علماء جزائريين بمصر..، مرجع سابق، ص ص ٧٧ – ٨٠.

(٢) أحمد المقري: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠٠٤م، ص ص ٤٣، ٧٠؛ إمحمد قرود : الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٣) المقري: الرحلة إلى المغرب والمشرق...، مصدر سابق، ص ٧٠؛ أحمد المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ، لبنان، ١٩٦٨م، ١/ ٥٦، ٥٧.

يوم الختم أكثروا له من الطيب وماء الورد وماء الزهر والند والعود الذي لا مثيل له ولا ند وكانت ختمة جميلة [١].

ولم يكن هذا الدرس مقتصراً على المغاربة فحسب، بل حضره غيرهم من الطلاب أبرزهم العلامة الزبيدي[٢]، والشيخ محمد الشنواني القيِّم على جامع الغورية، والشيخ محمد بن منصور السقطي[٣].

وأما التاودي ابن سودة [٤]فيصف حرص أهل العلم في مصر من طلاب وعلماء على أخذ الحديث الشريف منه وربط سندهم به بقوله:" فطمحت نفوس طائفة لها بالعلم اعتناء وفي الأخذ عن مشايخ المغرب رغبة أن أقرأ لهم من كتب الحديث ما تيسر، وإن كنت في الحقيقة على جناح سفر فأجبتهم بعد الاستخارة وموافقة القدر على قراءة الموطأ بالجامع الأزهر"، وقد لقي هذا المحدث قبول الأزهريين، فرحبوا به واجتمعوا على درسه واتسعت حلقته[٥].

---

(١) أبو عبد الله الطيب الفاسي : رحلة الفاسي ...، مصدر سابق، لوحة ١١٥ /ب، ١١٦ /أ .

(٢) محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، الملقب بمرتضى١١٤٥هـ / ١٢٠٥هـ (١٧٣٢– ١٧٩٠م): ورد إلى مصر سنة ١١٦٧هـ / ١٧٥٣م وأخذ عن علمائها المقدسي، وأحمد الملوي، والجوهري، والصعيدي، وغيرهم، واشتهر في مصر، وخارجها، وكان يراسله ويهاديه ملوك الترك، والحجاز، والمغرب، وغيرهم بالهدايا والتحف، وكان أكثر الناس حباً له المغاربة، له مشاركة في علوم اللغة والحديث والرجال والأنساب، أشهر مؤلفاته "تاج العروس" عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (ت ١٢٣٧هـ): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق : أ د / عبد الرحمن عبد الرحيم عبد الرحمن، منشورات مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨م، ٢/ ٢٨٨– ٣١٢؛ الكتاني: فهرس الفهارس...، مصدر سابق، ١/ ٣٩٨.

(٣) أبو عبد الله الطيب الفاسي : رحلة الفاسي ...، مصدر سابق، لوحة ١١٧ / أ، ب.

(٤) هو أبو عبد الله المري الفاسي تلقي علومه في فاس وخاصة الحديث والتفسير، حج سنة ١١٨١ هـ – ١٧٦٧م، ألقي دروساً هناك، ثم ورد إلى مصر وتباحث مع علمائها، وله مؤلفات منها: حاشية على البخاري، وأخرى على الرزقاني، توفي ١١٩٤ هـ – ١٧٨٠ م . الجبرتي: عجائب الآثار ...، مصدر سابق، ٢/ ٣٦١ – ٣٦٤.

(٥) محمد التاودي بن محمد الطالب بن سودة المري: الرحلة، وفيه سند التاودي بموطأ مالك وصحيحي الإمامين، نسخة في قسم المخطوطات، مكتبة الحرم النبوي بالمدينة المنورة عن المكتبة الأزهرية، تحت رقم ٨٨٦ تاريخ، ورقم ٥٣٥٨٢ مصطلح حديث، لوحات (٢/ أ ، ب).

وقد أشاد الجبرتي بهذا المحدث وبدرسه المذكور بقوله: " ألقي درساً حافلاً بالجامع الأزهر برواق المغاربة، فقرأ الموطأ بتمامه، وحضره غالب الموجودين من العلماء، وأجاد في تقريره "[١].

وأما بلاد الحجاز وهي مأوى لمجاوري الحرمين الشريفين من أهل العلم، فقد شهدت جهوداً طيبة قام بها النابغون من العلماء المغاربة لنشر العلم وتصدر مجالس الدرس ضمن الأنشطة العلمية المصاحبة للرحلة، ففي المدينة المنورة عقد العياشي درساً في المسجد النبوي من بعد العصر إلى قريب من المغرب لمدة شهر درَّس فيه مختصر خليل في الفقه المالكي من أول الكتاب وحتى فصل الأذان ثم حال المرض بينه وبين طلابه[٢]، ولما أحس بالعافية بدأ درساً جديداً في شرح شمائل الترمذي بعد صلاة الصبح بباب النساء مستعيناً بشرح المناوي للشمائل، فأفاد الطلاب كثيراً من هذا الدرس، غير أن المرض خال بينه وبين ختم الكتاب أيضاً [٣]، كما درَّس القرطبية في الفقه المالكي، وألفية ابن مالك في النحو ومختصر العصامي في الاستعارة وغير ذلك من الكتب[٤].

ومن الكتب التي درَّسها العياشي في المسجد النبوي أيضاً مقدمة السنوسي، ونقاية السيوطي طلبها منه أحد الطلاب من السودانيين المجاورين، والنقاية مختصر في عدة علوم، ومن الغريب أن هذا الطالب السوداني طلب من العياشي أن يدرَّسهم الطب والتشريح في الحرم النبوي وألحَّ عليه غير أنه رفض لعدم معرفته بهما [٥].

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ...، مصدر سابق، ٣٦٢/١ .

(٢) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٢٧ .

(٣) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٢٨ .

(٤) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٣٠ .

(٥) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٣٠ .

وكانت للثعالبي[١] زيارات سنوية للمدينة المنورة يعقد خلالها حلقات علمية في المسجد النبوي يدرِّس المعجم الصغير للطبراني، والأربعين حديثاً عن أربعين شيخاً لتقي الدين الفاسي[٢]، وكتاب الشمائل وكان مجلسه في الروضة فيما بين القبر الشريف والمنبر[٣].

وفي المسجد النبوي أيضاً أملى المقري الحديث الشريف من داخل الروضة؛ ونظرًا لمكانة الشيخ العلمية فقد حضر دروسه بعض أئمة الحرم النبوي الشريف[٤].

كما لقي الإسحاقي ثلة من أهل العلم بالمدينة المنورة وجالسهم منهم الفقيه محمد بن سعيد بن عبد الكريم الأنصاري الخزرجي وأخويه السيد يوسف والسيد عبد الرحمن، وهم من بيت علم من بقايا بيوت الأنصار، ومنهم السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة المنورة والخطيب والإمام والمدرس بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم [٥].

---

(١) عيسى بن محمد بن أحمد الجعفري: ينتسب إلى جعفر الطيار رضي الله عنه الثعالبي نسبة إلى موطن أجداده الثعالبة، ولد ونشأ في الجزائر وتلقى على علمائها الأفذاذ أمثال الشيخ المحدث سعيد قدورة الذي تأثر به كثيراً، فركز منذ وقت مبكرة على الحديث وروايته حتى أصبح شيخ المحدثين، خرج إلى الحج في سنة ١٠٦١هـ / ١٦٥٢م، وجاور المسجد الحرام سنتين سكن خلالهما بخلوة رباط الداودية عند مدخل باب حزورة، ثم جاء إلى مصر وأقام بها سنتين أخريين، ثم عاد بعدها إلى مكة المكرمة ليجاور أربعة عشر عاماً هي بقية حياته التي انتهت في رجب ١٠٨٠هـ / ١٦٧٠م. محمد أمين المحبي (ت ١١١١هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، لبنان، د – ت، ٣/ ٢٤٠ – ٢٤٣؛ محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م ، ص ٣١١؛ محمد حاج سعيد : مساجد القصبة في العهد العثماني، تاريخها، دورها، عمارتها، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، تخصص حضارة إسلامين، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة والحضارة، جامعة الجزائر ١، ١٤٣٥– ١٤٣٦هـ / ٢٠١٤– ٢٠١٥م، ١٢٩، ١٣٠.

(٢) تقي الدين أحمد بن محمد بن علي الفاسي (ت : ٨٣٣هـ)، فقيه مالكي نزل مكة وجاور البيت الحرام، ولي قضاء المالكية ، من مؤلفاته: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. مخلوف: شجرة النور الزكية ...، المصدر السابق، ص٣٦٣.

(٣) العياشي: الرحلة..، مصدر سابق، ٤٦٧/١؛ ربيعة قريزة: علماء جزائريين بمصر..، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٤) المقري: الرحلة إلى المغرب والمشرق...، مصدر سابق، ص ٧٠؛ أحمد المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ، لبنان، ١٩٦٨م، ١/ ٥٦، ٥٧.

(٥) الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٣٨٣ ، ٣٨٤.

وأما مكة المكرمة فكما كانت قبلة الصلاة ومقصد الحج فهي أيضاً وجهة العلم وللمسجد الحرام مكانته وقدسيته التي جعلت العلماء المغاربة يحرصون على أن يتعبدوا الله فيه بتدريس العلم النافع فيما أُتيح لهم من وقت قبل الحج وأثناء الموسم وبعده، فالمقري مكث في مكة المكرمة قبل الحج مدة شهرين منتظراً الفريضة كان خلالها مشتغلاً بالتدريس فتجمع حوله الطلاب وأملى عليهم دروساً عديدة في الفقه والحديث والتفسير والشمائل المحمدية [١].

وفي المسجد الحرام، تصدر الثعالبي لتدريس المعجم الصغير للطبراني بحضور فقهاء المذاهب المختلفة وكلما وقف على دليل فقهي وقف عنده وبين حِجيَّته ووجه الاستدلال منه الأمر الذي أعطى دروسه أهمية فالتف حوله المجاورون[٢].

ومن المغاربة من كان يعرج على بلاد الشام بعد تأدية الفريضة يزور بيت المقدس ويلتقى بالعلماء في مساجد وحواضر الشام العريقة أمثال المقري الذي خرج بعد تأدية الحج للمرة الخامسة في رجب ١٠٣٧هـ / مارس ١٦٢٨م، وهناك ألقى دروسًا في المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة والحرم الإبراهيمي، ثم توجه إلى دمشق فاستقبله أهل العلم فيها بما يليق بمنزلته ومكانته، وأخذ يدرسهم تاريخ الأندلس ويحدثهم عن أعلامها وحضارتها فطلب منه أعيان الشام وعلماؤه أن يترجم للسان الدين ابن الخطيب وبعض ملوك وعلماء وأدباء عصره الأمر الذي شجعه على تأليف كتابه المشهور : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب[٣].

أقام المقري في دمشق أشهراً معدودات أملى خلالها في الجامع الأموي صحيح البخاري، وقد لقي درسه إقبالاً كبيراً، وكان يوم الختام يوماً مشهوداً حضره أعيان دمشق وطلابها حتى

---

(١) المقري: الرحلة إلى المغرب والمشرق...، مصدر سابق، ص٧٠؛ أحمد المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، لبنان، ١٩٦٨م، ١/ ٥٦، ٥٧؛ محمد أمين المحبي (ت ١١١١هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، لبنان، د – ت، ١/ ٣٠٤.

(٢) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٦٧؛ ربيعة قريزة: علماء جزائريين بمصر ..، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٣) المقري: نفح الطيب...، مصدر سابق، ١/ ٥٦؛ المحبي : خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ٣٠٤.

ضاق المسجد بالحاضرين، ثم رحل منها عائداً إلى القاهرة في شوال ١٠٣٧هـ / يونيو ١٦٢٨م [١] .

مما سبق يتضح اهتمام علماء المغرب بالتنقل بين الحواضر الإسلامية والمراكز العامرة بالعلوم، واهتمامهم بتدريس ما عندهم من علوم ومعارف لمن طلب منهم كلما أتيحت لهم الفرصة سواء في المدارس أو المساجد.

المبحث الثاني: حضور مجالس العلم في المراكز العلمية:

أكدت مدونات الرحالة حرص الطلاب والعلماء المرافقين للقوافل على الإفادة من مركز العلم المهمة التي يمر بها الركب على الرغم ضيق الوقت، والانشغال بتهيئة أساب السفر والتزود بما يحتاجون لبقية مراحل الطريق، إلا إن هذا لم يمنعهم من مواصلة نشاطهم العلمي، بحضور مجالس وحلقات الدرس في طريق ذهابهم وعودتهم لعلماء وشيوخ في منازل الركب[٢]، ففي تازة، وتونس، وطرابلس الغرب، ومصر، وبلاد الحجاز والشام داوم علماء الركب المغربي وطلابه على حضور المجالس العلمية في المساجد والمدارس الكبرى، ولعل هذا يفسر لنا أن أغلب مشاهير علماء المغرب الذين برزوا في هذه الفترة سافروا إلى المشرق للعلم خاصة أو طلبوا العلم خلال رحلتهم للحج .

فبعد خروج الإسحاقي من فاس وعندما نزل مدينة تازة جلس إلى الشيخ عبد القادر بن الفقيه الذي وصفه بالمتانة في الدين والنجابة في الفقه يقول: "ذاكرته في مسائل أنبأنا فيها" [٣].

وخلال رحلته إلى الحج، نزل الثعالبي في تونس، وأخذ عن شيخها المحدث أبي بكر بن تاج العارفين البكري إمام جامع الزيتونة (ت ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م)، وكان له مجلساً مهيباً يدرِّس فيه طلابه صحيح البخاري[٤].

---

(١) المقري: نفح الطيب...، مصدر سابق، ١/ ٦١؛ المحبي : خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ٣٠٥.
(٢) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ٢/ ٤٧٤ .
(٣) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٣٥.
(٤) محمد بن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م، ص ٣٧١؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ...، المصدر السابق، ص ص ٣٠٥، ٣٠٦.

وفي طرابلس الغرب كانت تتفاوت مدة إقامة الركب المغربي طولاً وقصراً حسب الحاجة والأحوال[١]، لكنهم يلقون خلالها ترحيباً كبيراً من علماء المدينة أمثال الشيخ محمد بن أحمد بن مساهل[٢] الذي لقيه العياشي واستفاد منه ومن ابن أخيه الفقيه شعبان بن مساهل وكان مؤرخاً له معرفة بنوادر التواريخ، وأما ابن عبد القادر الفاسي فقد أفاد من ابن مساهل الكبير[٣].

وممن لقيهم العياشي أيضاً الشيخ محمد بن محمد المكني (ت١٠٩٩هـ/١٦٨٨م) تلميذ ابن مساهل ومفتي البلاد من بعده، ووصفه بالشاب الفقيه اللوذعي خطيب وإمام الجامع الكبير[٤].

ومن مساجد طرابلس العلمية مسجد درغوث باشا وهو مسجد كبير حضر فيه الرحالة مجالس العلم، نزل به الإسحاقي وذكر من لقيهم وأخذ عنهم أمثال : الفقيه محمد التونسي المقيم في طرابلس، والمفتي محمد بن مقيل الطرابلسي، والفقيه السيد محمد بوقلال المغربي[٥]، وهنالك حضر الورثيلاني مجالس لابن مقيل أيضاً وللفقيه المدرس عبد العزيز الذي لم يفصح عنه[٦].

---

(١) مكث العياشي فيها شهراً في الذهاب وأما الورثيلاني فلم يزد عن عشرة أيام بينما كانت ثمانية فقط أقامها ابن عبد القادر في المدينة. العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١٣٥؛ الورثيلاني : الرحلة ...، مصدر سابق، (ص ص ١٧٣، ١٧٤)؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، (لوحة رقم ٢٣ / ب).

(٢) كان ابن مساهل من خيرة علماء عصره في هذه الولاية تولى وظيفة الإفتاء والقضاء لمدة أربعين سنة ثم استعفى منها ولازم داره ومسجده وتفرغ للمطالعة والتدريس والتأليف حرص المغاربة على زيارته والاستفادة من علمه. العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١٣٧-١٤٢؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ٢٤ / ب.

(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١٣٥؛ ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ٢٤/ب.

(٤) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١٤٥.

(٥) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، (ص ٩٤) .

(٦) الورثيلاني : الرحلة...، مصدر سابق، (ص ص ١٧٣، ١٧٤).

وفي المسجد المذكور حضر ابن عبد القادر في طريق عودته دروس العلامة الشيخ محمد الرمشاني في موطأ مالك وكانت طريقته حسنة تدل على مشاركته في العلوم[١]؛ ويرجع السبب في ذلك أنه كان قد أمضى مدة إقامته في طريق الذهاب يداوم على درس الشيخ محمد الصقلاني في التفسير بمسجد يوسف باشا[٢] ولما دخل طرابلس عائداً وأراد إكمال الدرس عند الشيخ المذكور وجده مات فتوجه لمسجد درغوث باشا وسمع الموطأ من الرمشاني[٣].

وعن أهمية مصر العلمية للمارة والحجاج قال أبو بكر بن أحمد التنبكتي: "إنه لا معنى لعالم يذهب للحج دون أن يعرج على مصر ويستأنس بعلمائها"[٤].

لذلك تقلب المغاربة في حلقات العلم بالأزهر وغيره ما بين دروس النحو والفقه وعلوم العقيدة[٥]، فالعياشي حرص أن يكون سكنه قريباً من الأزهر ليتردد عليه ومن اليوم التالي لوصوله مباشرة حضر مجلس الشيخ عبد السلام اللقاني بعد صلاة الفجر مباشرة، وكان الشيخ لا يدرِّس إلا في رجب والشهرين التاليين له وغالب تدريسه في علوم الحديث[٦]، وحضر بعد العصر للشيخ موسى القليوبي وكان يقرأ الجامع الصغير للسيوطي[٧]، وداوم على درس الشيخ إبراهيم الميموني الشافعي [٨] وهو ممن انفرد

---

(١) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٣٧ / ب .

(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٢٣ / ب.

(٣) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ١٣٧ / ب.

(٤) أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه وفهارسه مجموعة من طلاب كلية الدعوة الإسلامية، إشراف وتقديم : عبد الرحمن بن عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط ١، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م، ص ٢٣١.

(٥) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ١٥٦ – ١٦١.

(٦) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٢٩ .

(٧) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٣٠ .

(٨) الشيخ إبراهيم الميموني الشافعي المصري، كان حياً سنة ١١٤٠هـ من علماء القراءات والتفسير البارزين عاصر الشهاب القليوبي، وعبد السلام اللقاني، نال ثقة طلاب الأزهر ومجاوريه فتتلمذ عليه عدد كبير في علوم القرآن. محمد خليل المرادي الحسيني (ت: ١١٧٣– ١٢٠٦هـ / ١٧٦٠– ١٧٩١م): سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، دار البشائر الإسلامية، ودار ابن حزم ط ٣، ٤/ ٢٦٦، الجبرتي: عجائب الآثار ...، مصدر سابق، ١/ ١٢٠، ١٤١.

بتحقيق علمي البلاغة والقراءات في الأزهر وكان درسه هذا في تفسير البيضاوي[١]. وكذلك حرص على مجالس أبي الحسن علي الشبراملسي [٢] في جامع المغاربة القريب من بيته وهو يدرس شرح المواهب اللدنية للقسطلاني[٣].

وبالجملة لم يترك العياشي في القاهرة أحداً من أهل العلم يستحق إلا أخذ عنه عدا الشيخ سلطان المزَّاحي[٤]، سمع منه حديثاً واحداً من أول البخاري وكان من أفذاذ الرجال علماً وعملاً إلا إن حدة طبعه وشراسة أخلاقه (رحمه الله) منعت بعض الطلاب ومنهم العياشي من الانتفاع به[٥].

وبعد عودته من الحج مكث الثعالبي في القاهرة عامي (١٠٦٤– ١٠٦٥هـ /١٦٥٣– ١٦٥٤م)، أخذ فيهما عن أعلام وشيوخ الأزهر أمثال شيخ المالكية نور الدين علي الأجهوري[٦]، وقاضي قضاة الحنفية شهاب الدين الخفاجي[٧]، وأبي الحسن إبراهيم الميموني،

---

(١) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٤٦ .

(٢) نور الدين أبو الحسن علي الشبراملسي الشافعي القاهري ولد بشبرا ملس في الغربية، وحفظ القرآن بها، ثم وفد على القاهرة سنة ١٠٠٨ هـ (١٥٩٩ م) ولازم علماء كثيرين منهم: البابلي، والحلبي، ودرس بالأزهر وتتلمذ علي يديه علماء أجلاء منهم: عبد الرحمن المحلي، و البشبيشي وله مؤلفات كثيرة، توفي ١٠٨٧ هـ /١٦٧٦م). المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٣/ ١٧٤ – ؛ محمد بن أحمد الحضيكي(ت ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م) : طبقات الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م، ٢/ ٤٧٤، ٤٧٥.

(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٥٣ .

(٤) سلطان بن أحمد بن سلامة من كبار علماء الشافعية بالأزهر عاش في الفترة ما بين ٩٨٥– ١٠٧٥هـ / ١٥٧٨– ١٦٦٤م وهو شيخ مشايخ القراءات والتجويد بالأزهر بلا منازع، المحبي: خلاصة الأثر..، مصدر سابق، ١/ ٣٣١– ٣٣٤؛ ٢/ ٢١٠، ٢١١؛ القادري : نشر المثاني ...، مصدر سابق، ٤/ ١٥٢٦؛ الحضيكي : الطبقات...، مصدر سابق، ٢/ ٥٧٠.

(٥) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٨٣ ؛ المصدر نفسه : ٢/٤٧٣.

(٦) هو زين العابدين الشيخ علي بن محمد القادري(ت ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م): ينسب إلى أجهور الورد بريف القليوبية، أخذ عن شيوخ كثيرين أمثال الرملي والكرخي حتى أصبح شيخ المالكية بالأزهر وأخذ عنه البابلي والشبراملسي، له مؤلفات كثيرة أشهرها ثلاثة شروح على مختصر خليل. المحبي : خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/١٥٧ – ١٦٠؛ محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق : محمد حجي، أحمد توفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، ط١، ١٩٨٦م، ٢/ ٨١.

(٧) أحمد بن محمد بن عمر الملقب بشهاب الدين(ت ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م)، المحبي: خلاصة الأثر..، مصدر سابق، ١/ ٣٣١– ٣٣٤.

وسلطان المزاحي، والشبراملسي وغيرهم ممن أثنوا عليه[١]؛ ولم يكتف الثعالبي بهؤلاء الموجودين في القاهرة، بل رحل إلى الصعيد في أوائل سنة (١٠٥٦هـ/ ١٦٥٥م) للأخذ عن الشيخ علي العدوي الصعيدي، فقرأ عليه بعض المصنفات وسمع منه الحديث الشريف[٢].

وممن رافق العياشي في التردد على مجالس هؤلاء العلماء ابن الطيب وأكثر مرافقته له كانت إلى مجلس الخفاجي[٣].

والورثيلاني كغيره التقى بالعديد من علماء الأزهر مثل: الشيخ الحفناوي[٤]، والشيخ الجوهري[٥]، وتفقد من بالأزهر من المغاربة واجتمع مع شيخ رواقهم..." [٦] والقائمة طويلة من أسماء علماء مصر الذين تقلب في مجالسهم وناقشهم في مسائل الفقه أو التفسير أو المنطق وعلى رأسهم الشيخ علي الصعيدي العدوي[٧] الذي قال عنه: "إليه النظر في وقتنا هذا في

---

(١) المحبي : خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٣/ ١٥٧، ١٦٠؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ...، المصدر السابق، ص ٣٠٣، ٣٠٤؛ العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ٢/ ١٢٦.

(٢) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، مرجع سابق ، ٢/٥٩.

(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٢٣؛ ابن الطيب: الرحلة...، مصدر سابق، لوحة ٤٦/ ب.

(٤) الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي (ت ١١٨١ هـ / ١٧٦٧م)، أحد النبهاء في علم الفقه والمنطق. الجبرتي : عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١/ ٣٧٢، ٣٩٣.

(٥) أحمد بن حسن بن عبد الكريم الجوهري الخالدي عاش في الفترة من ١٠٩٩– ١١٨٢هـ / ١٦٨٨– ١٧٦٨م، أخذ عن علماء عصره في الأزهر أبرزهم النفراوي والكنكسي والتطاوني، له مؤلفات أشهرها حاشية على شرح جوهرة اللقاني. المرادي: سلك الدرر...، مصدر سابق، ١/ ٩٧؛ الجبرتي : عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١/ ٣٦٤.

(٦) الورثيلاني : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٣٨. ورواق المغاربة من أقدم أروقة الجامع الأزهر، يستقبل فيه طلاب المغرب الإسلامي وزادت أهميته خلال العصر العثماني حيث أصبح وكأنه مؤسسة تعليمية واجتماعية يستمد مصادره المالية من أوقافه الخاصة والتي يديرها شيخ الرواق. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني، (١٥١٧– ١٧٩٨م) منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م، ص ص ٩٩، ١٠٠.

(٧) الشيخ علي بن أحمد بن مكرم الله العدوي المالكي الأزهري الشهير بالصعيدي(١١١٢– ١١٨٩هـ): أحد الأئمة الأعلام تتلمذ على النفراوي والكنكسي والتطاوني والملوي والسجيني والأسقاطي والدفري ومحمد البناني الفاسي والفيومي، حتى صار أحد صدور المالكية بالأزهر وأغلب مؤلفاته حواشي على متون، منها حاشية على شرح الجوهرة للشيخ عبد السلام، وحاشية على شرح السلم للأخضري. المرادي: سلك الدرر...، مصدر سابق، ٣/ ٢٠٦.

الجامع الأزهر بل وإليه تشد رحال الطلبة بمصر من كل جانب، وقد بلغ صيته و علمه مشارق الأرض و مغاربها"[١].

وأما الطيب الفاسي الذي ظل طوال فترة مكثه في القاهرة يتردد على المساجد العلمية الأزهر وجامع الحسين يتلمس مجالس العلم وقراءة القرآن[٢].

وممن استهواه من العلماء الشيخ داود القلعي، وكان مجلسه في علم الحديث بالأزهر وقت الضحى حيث لازمه لم يتخلف عنه مدة إقامته، وكان الشيخ يجمع في قراءته بين جامع الترمذي وبين إحياء علوم الدين للغزالي، وعلى الرغم من قصر المدة إلا إنه استفاد كثيراً فسمع منه إضافة إلى ما سبق مقدمته في الاستعارة المسماة بافتضاض البكارة في أمثلة الاستعارة من أولها إلى آخرها وأجازه فيها، وسمع منه الأربعين النووية من أولها إلى آخرها، وطرفاً من صحيح البخاري، وطرفاً من الشمائل الترمذية، وتفسير بعض الآيات القرآنية[٣].

كما قصد التاودي ابن سودة الشيخ أحمد الدمنهوري الشافعي[٤] في بيته ببولاق وجالسه أكثر من مرة وأملى عليه الكثير من المسائل الفقهية ثم أثنى عليه ابن سودة بقوله : "بحر لا ساحل مثله وشيخ ما لقيت مثله"[٥]، ثم قرأ على مفتي الحنفية الشيخ حسن الجبرتي[٦] من كتاب الكنز للنسفي في الفقه الحنفي، وتذاكر معه في مسائله لكن السفر أعجله عن إتمامه

---

(١) الورثيلاني : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٤١.

(٢) أبو عبد الله الطيب الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٥٢/ أ ، ٩٩/ ب.

(٣) أبو عبد الله الطيب الفاسي : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٩٦/ أ .

(٤) الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري شيخ الأزهر (ت: ١١٩٢هـ – ١٧٧٨م)، تلقى العلم في الأزهر على أكثر من ثلاثين من علماء المذاهب الأربعة وتعلم العلوم الحديثة كالطب والهندسة والرياضيات والمساحة والفلك والتكعيب له كثير من المؤلفات حتى لقب بأنه سيوطي عصره ...إلخ . محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ..، مصدر سابق، لوحة ١٨ / أ ، ١٨ / ب؛ الجبرتي : عجائب الآثار...، مصدر سابق، ٢/ ١٠٠ .

(٥) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٧/ أ .

(٦) والد المؤرخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (١١١٠– ١١٨٨هـ/١٦٩٨–١٧٧٤م)، توفي أبوه شابا لم يتجاوز الستة عشر عاما، بينما لم يتجاوز المترجم الشهر من عمره فنشأ في كنف والدته وجدته، فحفظ القران وعمره عشر سنوات، وحفظ المتون وتدرج في العلم حتى أصبح مفتياً للحنفية وشيخًا لرواق الجبرت بالجامع الأزهر. الجبرتي: عجائب الآثار...، مصدر سابق، ٢/ ٥٠٦ – ٥١٣.

[١]، وقرأ كذلك على مفتي الحنابلة أبو البركات أحمد بن عوض المقدسي كتاب دليل الطالب[٢].

وأول من قرأ عليهم العياشي في المدينة المنورة الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الديبع الزبيدي (ت ١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م) وهو فقيه محدث قارئ للقرآن له فضل كبير على العياشي، فهو الذي عرَّفه بجل علماء المدينة وكتب إليهم يوصيهم به، قرأ عليه ختمة بقراءة ابن كثير المكي وعلى الرغم من تزاحم الطلاب عليه إلا إنه قدَّم الوافدين فحدد للعياشي وقتاً معلوماً من فجر يوم ٤ صفر ١٠٧٣هـ/ ١٩ سبتمبر ١٦٦٢م، ثم زاده وقتاً آخر بين الظهرين حتي أتم ختمته في سبعة عشر يومًا، كما قرأ عليه المقدمة الجزرية في مجلسين فقط[٣]، الأمر الذي يدل على همة هؤلاء واستثمارهم للوقت.

ثم حضر العياشي مجلس الثعالبي في الروضة، وكان مجلساً نافعاً أشاد به الرحالة [٤]، وممن حضر مجالسهم في المدينة الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني الشهراني[٥]، قرأ عليه شرح الجرجاني لمنظومة "الهداية إلى علوم الدراية" لمحمد بن الجزري في الحكمة قراءة تحقيق وتدبر وكان مجلسه حافلاً[٦].

والجدير بالذكر أن العياشي الذي تتلمذ على الكوراني وأخذ عنه بعض العلوم كان متفوقاً عليه في علوم أخرى طلبها منه الشيخ فأجازه بها مثل علم الحديث الذي كانت رغبة الشيخ

---

(١) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٩/ أ .
(٢) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ٢٠/ أ .
(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٥.
(٤) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٦٧ .
(٥) ولد ونشأ في شهران من بلاد الأكراد، وتعلم العربية ودرس المعاني والبيان والفقه والتفسير وبعض العلوم العقلية كالهندسة والهيئة بها، ثم زار بغداد وأمضى فيها عامين، ودمشق ومكث فيها أربع سنوات ومنها ذهب إلى مصر مروراً بالقدس والخليل، ولقي من علماء مصر المشهورين الخفاجي، والمزاحي، ثم غادرها إلى الحجاز فحج وأقام بالمدينة المنورة، كان يتمتع بحافظة قوية يجيد العربية والفارسية والتركية إضافة إلى لغته الكرية، يدرس الطلاب كلٌ بلغته وأغلب مؤلفاته بالعربية. العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٧٩، ٤٨٥.
(٦) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٧٩ ، ٤٩٣.

في تحصيل أسانيده قوية، فلما جلس مع العياشي طلب منه أن يحدثه بالحديث المسلسل بالأولية[١]، ومن شيوخ العياشي بالمدينة الشيخ عبد الصمد بن محمد بن الفضل الخراساني سمع منه صحيح مسلم[٢].

كما حضر الإسحاقي ومن رافقه مجالس العلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مجلس السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة المنورة والخطيب والإمام بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم [٣].

وفي المسجد الحرام، كانت مجالس العلم حافلة بالطلاب والعلماء لا سيما في مواسم الحج، فانخرط فيها المغاربة المرافقون للركب وتتلمذوا على يد علمائها مغتنمين أفضلية الزمان والمكان مع أفضلية وشرف طلب العلم، فمن شيوخ العياشي الذين حضر مجالسهم في مكة المكرمة الشيخ يونس بن يحي العباسي [٤].

والإسحاقي يعدد العلماء الذين حضر مجالسهم في المسجد الحرام منهم الشيخ عمر البار باعلوي الحسيني أخذ عنه هو ومن معه من الطلبة المغاربة وسألهم عن بعض علماء المغرب ممن له بهم سابق معرفة[٥]، ومنهم المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد عقيلة الذي قرأ عليه أوائل كتب الحديث كالبخاري والشفا في ما تيسر لم من الوقت[٦]، والشيخ محمد بن علي بن فضل الحسيني الشافعي الشهير بالطبري إمام مقام الخليل إبراهيم وهو عالم ناسك لا يكاد يبرح الحرم عاكف على العبادة والتصنيف[٧]، وأبو الفضل محمد تاج الدين بن عبد المحسن المفتي الحنفي بالحرم، يقول الإسحاقي عنه: "واستمطرناه في العلم فوجدناه صيباً

---

(١) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٨٩– ٤٩٢ .
(٢) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٥٠٦– ٥٠٧ .
(٣) الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٨٤.
(٤) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٥٠٧.
(٥) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥.
(٦) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٢٨٧، ٢٩٤ ، ٢٩٥.
(٧) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٢٩٥.

مدراراً، وسألناه أول ما جلسنا إليه[١]، ومنهم الفقيه الأديب السيد عبد الله بن المرحوم يحي أفندي بن جعفر الواعظ وهو من أهل الوجاهة بالحرم[٢]، كما انتفع بمجالسة الفقيه زين العابدين بن سعيد المنوفي مفتي الشافعية بالحرمين الشريفين، كان له دار في مكة وأخرى في المدينة يتردد بينهما[٣].

وممن تكررت مجالسة الإسحاقي له في المسجد الحرام الفقيه العلامة محمد بن سليمان الروداني السوسي وكان مقيماً في دار قرب المسجد الحرام [٤].

كما ذكر أبو راس[٥] الشيخ عبد الرحمن التادلي المغربي الذي لقيه في المسجد الحرام وختم عليه شرح ابن عباد على الحكم قراءة تحقيق وتدقيق تحت ميزاب الرحمة داخل الحجر[٦].

ولم يهمل الحجاج حلقات الدرس حتى في أيام منى فالعياشي لقي فيها الشيخ سليمان بن عبد العزيز الحبيشي وهو من مدينة الأحساء، وكانت له حلقة في مسجد الخيف ليالي منى، استفاد منه العياشي وحصلت بينهما ألفة طوال أيام الإقامة بمكة [٧]، ومن ذلك اجتماع الورثيلاني بالشيخ محمد أكرم بن عبد الرحمن مفتي الهند، وهو علم له مؤلفات على رجال

---

(١) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٢٩٥– ٢٩٧.

(٢) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٢٩٨.

(٣) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٠٢.

(٤) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٣١٠، ٣١١.

(٥) محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس الناصري الجزائري ١١٦٥– ١٢٣٨هـ/(١٧٥١– ١٨٢٣م: ولد وبدأ حياته العلمية بناحية المعسكر وأصبح في وقت وجيز من أنشط علماء الجزائر بدأت رحلاته بعد الخمسين من عمره رحل إلى المغرب والمشرق للعلم والحج الذي أداه عام ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م، له أكثر من مائة مؤلف أشهرها رحلتان دوَّن مشاهداته فيهما الأولى هي: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، والأخرى عجايب الآثار. مشوشة سمير : ابن حمادوش الجزائري وابو راس الناصري يؤرخان للعلاقات التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن ١٨م، بحث منشور في مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ، مجلة دورية دولية محكمة، العدد ١٢، ص ٢٩٣.

(٦) محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس : عجايب الأسفار ولطايف الأخبار، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم ٢٣٣٢ ، لوحة ٥٧.

(٧) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٣٣١.

البخاري وله مختصر جمع فيه متن الصحيح في مجلد بعد حذف الأسانيد فتباحث معه الورثيلاني في منى في بعض المسائل واستفاد منه[١].

ومنهم من بحث عن العلماء وحضر مجالسهم في مدارس ومساجد مكة الأخرى خارج المسجد الحرام مثل العياشي الذي ذهب للشيخ جمال الدين الهندي (ت ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م)، وجلس إليه في المدرسة الداودية[٢].

المبحث الثالث : لقاء العلماء والفقهاء في بيوتهم:

حرص أهل العلم من الحجاج المغاربة المرافقين للركب على لقاء العلماء والاجتماع بهم في المراكز العلمية التي كانوا يمرون منها سواء بحضور مجالسهم في حلقاتهم داخل المساجد والمدارس العلمية، أو بزيارتهم في بيوتهم وتلبية دعوة من استضافهم في بيته، ولا شك أنهم أفادوا من هذه الزيارات في القراءة، فبيوت العلماء كانت بمثابة أندية ثقافية تلقى فيها الدروس، وتقام فيها الندوات والمناقشات ويتبادلون الرأي، ويبدو حرص هؤلاء على هذه الزيارات بامتثالهم لرغبة مشايخهم وتلبية دعوتهم، بل أوصى السابق منهم اللاحق ونبهه على أهميتها[٣].

وبمطالعة مدونات هؤلاء الرحالة تبين أن علماء الأزهر في مصر كانوا حريصين على دعوة الحجاج المغاربة من أهل العلم لضيافتهم وإكرامهم أمثال: الشيخ إبراهيم الميموني الذي استضاف العياشي وجماعة ممن معه في بيته وقدَّم لهم طعام الإفطار ليلة السابع والعشرين من رمضان[٤]، والميموني ممن انفرد بتحقيق علمي البيان والمعاني، وكان له درس في مختصر السعد ابتدأه قبيل رحيل الركب المغربي بأيام في صحن داره فحضره أكابر الطلبة

---

(١) الورثيلاني : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٤٥٩ .

(٢) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٣٣٣.

(٣) أوصى التاودي صديقه الفقيه أحمد السوسي إذا مر بمصر أن يزور الشيخ الدمنهوري في بيته، ورغَّبه أن يسمع منه ويقرأ عليه وأكد عليه ذلك بعدما حدد له مكان بيت الشيخ في القاهرة وأنه لا ينزل منه إلى الأزهر غير مرة واحدة في الأسبوع في يوم الجمعة. محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٨/ أ .

(٤) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٢٨ .

خاصة ولازمه العياشي هذه الأيام على الرغم من شواغل الإعداد للسفر ولم يترك منه حرفاً واحداً[١].

كما استضافهم شيخ القراء الشيخ سلطان المزاحي وأكرمهم ودعا لهم، والمزاحي كانت أوقاته مقسمة بين العبادة والتدريس والإقراء[٢]، ولما في الزيارات من فوائد فقد ذهب العياشي بنفسه لزيارة موسي القليوبي في بيته عند باب النصر من غير دعوة مسبقة فرحب به الشيخ أيما ترحيب[٣].

ولأهمية الزيارات العلمية في تمتين أواصر العلاقات العلمية فقد استهل التاودي رحلته بذكر جملة من لقيهم بالديار المشرقية [٤]، وفي مصر استضافه أبو العباس أحمد البيوسي بمنزله في ناحية الحسينية بطرف القاهرة مما يلي البركة وأكرمه[٥].

وقام بزيارة للشيخ أحمد الجوهري مفتى الشافعية في مرض موته فامتن به الشيخ كثيراً ورحب بقدومه ودعا له وأكرمه ولما حضرت صلاة المغرب قدمه الجوهري ليؤمه في الصلاة[٦]، ولا شك أن هذه الزيارة لم تخل من فائدة علمية.

وأما عن زيارات ابن عبد القادر الفاسي للعلماء في مصر فيقول: " وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من صفر ذهبت لشيخنا العلامة المشارك ... أبي سليمان الشيخ داود بن محمد الأزهري القلعي القاطن بالقلعة بقصد الأخذ عنه وهي أول ملاقاة معه فلما قدمت عليه رحب بي غاية وهش وبش وأدخلني لداره وأحضر لي من الطعام ما حضره بالوقت وهو الخبز والعسل والجبن والماء البارد وأكل معي نفع الله به وتكلم معي في مسائل فظهرت

---

(١) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٤٨ .
(٢) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٢٩ .
(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٢٤٤ .
(٤) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٠/ أ .
(٥) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٣/ ب، ١٤/ أ .
(٦) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٨/ ب .

مشاركته في العلوم المعقولية والمنقولية لا سيما علم الحديث الشريف وطلبت منه الإجازة...إلخ" [١].

وهذا يدل على عناية المغاربة بزيارة العلماء وترحيب العلماء بهم في بيوتهم وإكرامهم وفي هذا مزيد من التفرغ لهم بعيداً عن زحام الحلقات في دور العلم، فالشيخ القلعي المذكور كان له مجلس بالأزهر يأتي إليه كل يوم من حي القلعة ومع ذلك يستقبل الطلاب في بيته ويمنحهم من وقته وعلمه وماله تعليماً وإطعاماً وإكراماً وإجازة[٢].

وأما الشيخ سليمان الفيومي سليمان الفيومي[٣] الذي أرسل إلى جماعة الحجاج المغاربة ليأتوا بيته فلما قدموا عليه وكان ابن عبد القادر معهم يقول: "فرحب بهم غاية وأظهر من السرور ما يعجز عن وصفه الواصف...، وأمر خدمته أن يحضروا أنواع الطيب، فسارعوا في إحضاره من العود والند وماء الورد وغير ذلك وجعل يطيب الناس ويطيب المكان" وفي هذا اللقاء دار النقاش في مسائل علمية عديدة[٤].

وفي المدينة المنورة رحب علماؤها بأهل العلم المرافقين للركب المغربي واستضافوهم في بيوتهم وأكرموهم

فعندما زار العياشي الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني في بيته صحبة شيخه أبي الحسن علي الديبع واجده جالساً بين كتبه يطالع فيها فرحب بهما الشيخ وأكرمهما بما تيسر من كسر الكعك والملح مع الزعتر والقهوة[٥]، ثم توالت زيارات العياشي لشيخه المذكور مدة إقامته بالمدينة المنورة لم يمنعه عنه إلا فترة المرض، وكان الكوراني هو الذي يعوده خلالها [٦].

---

(١) أبو عبد الله الطيب الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٩٢/ ب، ٩٣ / أ .

(٢) أبو عبد الله الطيب الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٩٣/ أ .

(٣) شيخ رواق الفيمة بالأزهر، كان حياً عام ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م. سجلات محكمة جامع الحاكم: س ٧٤٦، ص ٩٠، م ١٤٠ بتاريخ غرة جمادى الأول سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٨ م.

(٤) أبو عبد الله الطيب الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة رقم ٩٦ / ب ، ٩٧ / أ .

(٥) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٨٧، ٤٨٨.

(٦) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٩٢ .

ومن زيارات ابن سودة علماء المدينة المنورة زيارته للسيد محمد السمَّان[١] وكان بيته قريباً من المسجد النبوي من ناحية باب جبريل ليس بينهما إلا الشارع وهو ممن يحسن للغرباء[٢]، كما استقبله الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن أسعد مفتي المدينة المنورة في بيته وكان خارج المدينة فأكرمه غاية الإكرام وأجازه بكل ما عنده[٣]،حيث يذكر الإسحاقي أن الفقيه زين العابدين بن سعيد المنوفي سابق الذكر، لم يكتف بإكرامه في مكة المكرمة، بل أعطاه كتاباً موجهاً لولده بالمدينة المنورة فاستضافه بدارهم وأجزل له الضيافة والإكرام مدة الإقامة بها وعندما حان الارتحال أراد الإسحاقي أن يعطيه أربعة مثاقيل ذهباً ردها عليه وقال يا سيدي لكم الفضل في نزولكم علينا [٤].

وممن زارهم الإسحاقي في المدينة أيضاً الفقيه محمد بن سعيد بن عبد الكريم الأنصاري الخزرجي فقد زاره في داره المعروفة بدار أبي أيوب الأنصاري وهي دار مشهورة والشيخ عبد الكريم له وجاهة وتوقير بالمدينة أحسن استقبالهم وقدم لهم التمر والماء وقال هذه ضيافة أهل المدينة، وأهدي للإسحاقي طاقية من عمل المدينة وتدارسوا معه في تحديد المزارات المستجاب فيها الدعاء بالمدينة المنورة فأخبرهم أن المدينة كلها مباركة[٥].

ومن هؤلاء العلماء السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة المنورة والخطيب والإمام بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم "وكان دمث الأخلاق، كثير الإنفاق، متودد للواردين من الآفاق"[٦].

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الكريم المدني الشافعي القرشي الشهير بالسمَّان (١١٣٠– ١١٨٩هـ/ ١٧١٨– ١٧٧٥م) : ولد ونشأ في المدينة المنورة أرسله والده إلى مصر سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦١م، لطلب العلم ثم عاد وتصدر للتدريس بالمسجد النبوي حتى وفاته. المرادي: سلك الدرر...، مصدر سابق، ٤/ ٦٠؛ الجبرتي : عجائب الآثار...، مصدر سابق، ١/ ٤٨٠.

(٢) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١١/ ب .

(٣) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٢/ ب .

(٤) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٠٣.

(٥) الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٨١.

(٦) الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٨٤.

وفي مكة المشرفة كانت أغلب الزيارات بعد أداء الفريضة؛ لأن الوافدين لا يأتون من سفرهم غالباً قبيل اليوم الثامن من ذي الحجة فينطلقون مباشرة لأداء المناسك، وبعد نزولهم من منى وفراغهم من تأدية المناسك يتزاورون فيما بقي لهم من وقت الإقامة قبل أن يرحلوا من مكة فزيارة العياشي للشيخ زين العابدين الطبري[١] في داره جاءت بعد الحج، حيث أحسن الشيخ استقباله[٢]، كذا زار التاودي ابن سودة أبا عبد الله محمد بن خالد الجفري شيخ المالكية وأحد أئمة المسجد الحرام الذي لقيه واستضافه في بيته وأكرمه وأجازه[٣].

ومن هؤلاء العلماء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عقيلة المكي ذهب إليه الإسحاقي ومعه ابن أخته الفقيه العربي بن محمد إلى منزله يقول: فلما دخلنا عليه... أجزل القرى وبالغ في التحفي بنا وأفدنا من فوائده...وذاكرته في مسائل من العلم وأطلعنا على جملة من مؤلفاته ومصنفاته وهي كثيرة[٤].

وممن زارهم الإسحاقي أيضاً في مكة الشيخ محمد الطبري وهو عالم ناسك يلزم بيته بالفترة الطويلة فلما زاره ومن معه رحب بهم وأطلعهم على مؤلفاته في التفسير والفقه[٥].

كما دعاهم الفقيه زين العابدين بن سعيد المنوفي مفتي الشافعية، إلى داره وأكرمهم وأهداهم قصيدة من نظمه في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، فأنشده الإسحاقي قصيدة مثلها على سبيل المطارحة، فأجابه الشيخ بقصيدة عجيبة ودفعها إليه من حينه، يقول الإسحاقي: "فعجبت من حسن رويته، وسرعة نجيته في الشعر وبراعته"، وأطلعه المنوفي على بعض مكاتباته عن أمراء مكة المكرمة فقرأها الإسحاقي ثم مدح أسلوبه بقوله: "فرأيت قلماً عالياً، واختراعاً في الإنشاء سامياً"[٦].

---

(١) زين العابدين بن عبد القادر الطبري الحسني المكي (ت ١٠٧٨هـ): فقيه شافعي تولى إفتاء الشافعية وإمامة المقام الإبراهيمي في الحرم المكي. المحبي : خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٢/ ١٩٥.

(٢) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٣٣٣، ٣٣٤.

(٣) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١١/ أ .

(٤) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٢٨٧، ٢٨٨ .

(٥) الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٦) كان للشيخ المنوفي المذكور بيتين في المدينتين المقدستين يتردد بينهما فبيته الأصلي في مكة ثم عرض له أن ينتقل إلى المدينة المنورة، وهو في هذه السنة قدم مكة حاجاً. الإسحاقي : الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٣٠٢– ٣٠٧.

وممن زار أيضاً الشيخ عبد الله الإسكندراني الضرير في منزله قرب باب العمرة وأثناء الزيارة حدَّثه الشيخ بمصنفاته في الحديث وعلم الكلام وغير ذلك من العلوم[١].

ومن الجدير بالذكر، إن هذه الزيارات كانت تعمق العلاقات بين الحجاج المغاربة وبين العلماء في المراكز العلمية المختلفة حتى أنهم كانوا عند السفر يذهبون لتوديعهم وطلب الدعاء منهم الأمر الذي أبقى العلاقات مستمرة بعد السفر عن طريق المراسلات فابن عبد القادر الفاسي لما عزم على الرحيل من مصر قام بزيارة الجامع الأزهر لتوديع شيخه القلعي يقول: "فودعته وودعني وعا لي بما نرجو من الله قبوله"[٢].

المبحث الرابع: المساجلات والمناظرات العلمية:

لم يكن النشاط العلمي على طريق الحج المغربي خلال العصر العثماني نشاطاً تقليدياً تلقينياً في معظمه؛ بل تميز بخروجه في كثير من الأحيان إلى دائرة النقاش والبحث والنقد لإثبات الحقائق العلمية أو نفيها.

وقد مثلت المناظرات والمناقشات جانباً مهمًا من جوانب التواصل الثقافي بين المغاربة وأهل العلم على طريق الحج وفي منازله، ولم يكن الغرض منها استعراض القدرات المعرفية بقدر ما هو وسيلة من وسائل الاجتهاد الجماعي للوصول إلى الحق في بعض النوازل المعاصرة الأمر الذي جعل المناقشات تميل ناحية الفقه أكثر من غيره من العلوم، لكن تبقي حقيقة وجود مناقشات ومناظرات في علوم وفنون أخرى بعضها في العقيدة وبعضها في الحديث والتفسير والنحو.

ففي ورقلة الجزائرية عند زيارة العياشي لأمير المدينة تناقش معه في بعض المسائل الفقهية وطلب منه أن يعد له الجواب عنها مكتوباً[٣]، وفي نفزاوة من بلاد تونس اجتمع إليه جماعة من المتفقهة وأهل العلم وناقشوه في بعض مسائل فقه العبادات[٤].

---

(١) الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣١٠.
(٢) ابن عبد القادر الفاسي: الرحلة ...، مصدر سابق، (١٢٦/أ).
(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١١٧.
(٤) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١٢٧.

كما ذكر الإسحاقي أن ابن أخته الفقيه العربي بن محمد المغربي – وهو ممن صحبه في الرحلة –كان يهوى المحاورات والمناقشات العلمية مع علماء منازل الركب ففي توزر أثار الطلاب معهم بعض المسائل في الفقه والنحو فتصدر لهم وأجابهم عما يريدون[١] ، وفي مصر كان يجالس العلماء في الأزهر ويتحاور معهم في بعض الألغاز النحوية، والفقهية أيضاً[٢].

وأورد أبو راس الناصري مناظرة مجلس علماء الجزائر بالجامع الأعظم[٣] في القهوة والدخان وعما يُسَف منه ويُشَم فأجاب بأنهما من المسائل المختلف فيها وأيد رأيه بما نقله الشيخ علي الأجهوري عن الحطاب[٤]، وفي طرابلس تناقش العياشي مع ابن مساهل حول طهارة حيوان الزباد العطري[٥].

ومن أبرز المناقشات في مكة المكرمة ما دار عند حدوث الشك في رؤية هلال ذي الحجة وذهب بعض الحجاج إلى عرفات يوم الثامن خشية أن يكون هو يوم عرفة حتى لا يفوتهم الوقوف وقد وقع خلاف حول هذه النازلة فتدخل العياشي وحسم الخلاف بقوله: "إن وقوفكم على الشك لا يجزئ؛ لأنكم لم تقفوا بنيَّة أنها عرفة فهو كمن صام يوم الشك احتياطاً فلا يجزئه، ولسنا بمأمورين باتباع الشك في مثل هذا، سيما الشك الذي لا مستند له"[٦].

---

(١) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٢) الإسحاقي: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١٥٠.

(٣) يرجع تأسيس الجامع الأعظم في الجزائر إلى عام ٤٠٩هـ / ١٠١٨م، وهو أهم مساجد المالكية في مدينة الجزائر فهو مقر مفتي المالكية، يعقد فيه مجلس كل يوم خميس يحضره علماء المذاهب على يتقدمهم مفتي المالكية ومفتي الحنفية والقاضي المالكي والقاضي الحنفي و يحضر معهم الباشا أحياناً للنظر القضايا الفقهية الشائكة التي تحتاج إلى فتاوى ويسمى المجلس الشريف. صبرانية لنور : مساجد مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (القرنين ١٧ – ١٨م)، بحث منشور في مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية ، جامعة بابل ، العدد ٣٤ ، آب ٢٠١٧م، ص ٣.

(٤) محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس : فتح الإله ومنته...، مصدر سابق، ص ص ١٥٩– ١٦٠.

(٥) العياشي : الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ١٣٧–١٤٢؛ والزباد : حيوان عطري مثل السنور يجلب من بلاد الهند ويستخرج منه عرق مثل الزباد له رائحة طيبة . ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، مادة : زبد.

(٦) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٣١٨.

ومثل ذلك في المدينة المنورة وقعت مناقشات بين المغاربة المرافقين للعياشي وبين طائفة المالكية عمَّا يقطع من نبات الحرم المنتفع به للأكل كالخبيز وغيره[١]، على أن أهم المناظرات العلمية التي حضرها العياشي مناظرة أحد الرافضة الذي زعم أنه شريف سني مالكي ثم أخذ يثير بعض المسائل في العقيدة داخل المسجد النبوي في الذات والصفات، فأجابه العياشي وكلما أقام عليه الحجة تعلل الرافضي بعدم معرفته اللغة العربية، لكن العياشي بالجملة نقد كل إشكالاته ويبدو أن أمر هذا الرجل افتضح في المدينة وناظره غير واحد من علمائها أمثال الشيخ بدر الدين الهندي، والشيخ الملا إبراهيم بن حسن الكوراني[٢].

ومن هذه المناظرات الهادفة ما وقع بين العياشي وشيخه الثعالبي أثناء درس الأخير في المسجد النبوي حول وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة أو إسدالها وجرت المناقشة بين الشيخ وتلميذه في المسألة المذكورة بطريقة علمية هادفة مبنية على الدليل حيث تبنى العياشي مذهب المالكية وقدم أدلتهم من السنة الصحيحة قولاً وفعلاً[٣].

ومنها مناظرات كانت تقع بين الطلاب الحلقات العلمية بحضور شيوخهم مثلما كان يحدث بين العياشي وبين طلاب المذهب الحنفي خلال شرح الشيخ بدر الدين الهندي لكتاب المنار في أصول الفقه الحنفي لابن الملك وكان الشيخ ينتصر لمذهبه معهم ولم يكن يحضر مجلسه مع العياشي من طلاب المالكية أحد ولا من نجباء المذاهب الأخرى حتى يساعدوه في الانتصار لأدلة مذاهبهم[٤].

ولم تقتصر المناظرات على المخالفين في العقيدة كالروافض أو في المذهب الفقهي بل ناظر المغاربة من هم على مذهبهم من المالكية كالمناظرة التي وقعت بين العياشي وأحد مدرسي المالكية في المسجد النبوي، في المعاملات المالية مما يتعلق بصرف العملات بعضها ببعض وقد فصل العياشي فيها مع أنه لم يصرح باسم مناظره[٥].

---

(١) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٠٣ .
(٢) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٣٤ – ٤٣٦.
(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٤٥ .
(٤) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٦٣٠ .
(٥) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٥٠ – ٤٥٣.

وتأخذ المناظرات العلمية سبيلاً طيباً إذا كان أحد المتناظرين تلميذ لمُناظره، فتبدو وكأنها مذاكرة بينهما ولا يلزم أن يرضخ فيها التلميذ لكلام شيخه ومن ذلك المذاكرة التي وقعت بين العياشي وشيخه أبي الحسن علي الدبيع في مسألة تتابع دفن الموتى في البقيع وإعادة حفر القبور القديمة لتكرار الدفن فيها مرات أخرى وخلُصت هذه المناقشة إلى أنه لا يجوز الدفن في قبر ما دام صاحبه فيه، وأرض البقيع لملوحتها ونداوتها تفني الأجساد بسرعة لا تتجاوز سبع سنين إلا وتبلى العظام ولا يبقى لها أثر وعندها فلا مانع من الدفن في قبر ليس فيه أحد [١].

وعندما لقي التاودي ابن سودة العلامة عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس في المدينة المنورة تناقش معه فيما عَنَّ له من مسائل علمية مثل قوله : "وتكلمت معه في حديث وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وما فيه من الإشكال فأجابني بديهة" [٢].

إن المراجع لما سجله الرحالة عن المناظرات والمناقشات التي وقعت بينهم وبين وأترابهم على طريق الحج يدرك مدى حرص هؤلاء العلماء على اتباع آداب الحوار الراقي الذي هدفه الوصول إلى الحق في المسائل المطروحة على مائدة النقاش بالإقناع المعتمد على الدليل والحجة.

ومما يحسن ذكره أيضاً من الآداب احترام الطرف الآخر وانتقاء الألفاظ الحسنة في وصفه والاعتراف بفضله والدعاء له، وهذا كله يؤكد أن هذه المناظرات كانت سجالاً علميًّا خالصًا لا غرض من ورائه لتشويه المتناظرين ولا التقليل من مكانتهم العلمية، ففي مناظرة العياشي مع الرافضي سالفة الذكر بيَّن العياشي فساد معتقد مناظره لكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بمعرفته للعلوم العقلية، حيث قال عنه: "له مشاركة حسنة وقوة في بحث المعقولات"[٣].

وأما عن مناظرة العياشي لشيخه الثعالبي، فقد أبدى فيها أدباً جماً واحتراماً فعلى الرغم من أن الشيخ ضعَّف جواب تلميذه إلا أن الأخير لم يزد على أن كتب عبارة : "ومن أنصف

---

(١) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٧٧، ٤٧٨.
(٢) محمد التاودي ابن سودة : الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٢/ ب ، ١٣/ أ .
(٣) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٣٥.

علم أنه لا ضعف في الجواب" ولم يرقه مراجعة الشيخ في المجلس الذي يحضره مع طلبة العلم بعض العوام ممن لا معرفة لهم بالفروع الفقهية يقول العياشي: "ولكن كرهت مراجعة الشيخ بمثل ذلك في المجالس الغاصة الحافلة بأهلها، فأعرضت[١].

ولم تكن المناقشات مقتصرة على المجالس العلمية في منازل الطريق، بل كانوا يتسامرون في محاوراتهم العلمية يمضون نهارهم ويقطعون ليلهم خلال السير في المراحل المختلفة مثلما حدث بين العياشي وبين شهاب الدين المصري الذي لقيه في بيت المقدس وصحبه في طريق العودة إلى مصر فأمضى الطرفان وقتاً طويلاً في محاورات ومذاكرات حتى افترقا في دمياط فخرج الطرفان بفوائد جمة[٢].

وفي الجملة، فإن هذه المناظرات تؤكد مدى التفاعل بين العلماء وكثرة اطلاعهم وقوة استنتاجاتهم في تقييم الأدلة التي يستشهدون بها ويرجحون على أساسها.

المبحث الخامس : الإجازات والأسانيد العلمية المتبادلة:

الإجازات العلمية من المبتكرات العربية الإسلامية تقوم على إذن يقدمه العالم لطالب قرأ عليه أو سمع منه وتثبت من إتقانه، يسمح له بالرواية عنه وتدريس ما تلقاه عليه من مصنفات، وهي تقابل الشهادات الجامعية التي تؤهل حاملها للتدريس[٣].

ولعل من دلالات أهمية كتابات الرحالة المغاربة ما تضمنته من معلومات تؤكد أن علاقاتهم بعلماء المشرق ظلت وثيقة متنتها الإجازات والأسانيد المتبادلة التي كانوا ويحرصون على تسجيل نصوصها في رحلاتهم مما أتاح لنا ثروة مصدرية كبيرة تغطي هذه الناحية من التواصل العلمي على طريق الحج المغربي.

ومن خلال تلك النصوص تبين للباحث أن أهل العلم في منازل الركب تابعوا المرافقين للقوافل من مشاهير العلماء فاستقبلوهم وانتفعوا بما لديهم من علوم وتحملوا عنهم الأسانيد

---

(١) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٤٥ – ٤٤٦.

(٢) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ٢/ ٤٦٨.

(٣) عبد الهادي التازي: رحلة الرحلات، مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، ٢٠٠٥م، ١/ ١٣٤؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، مرجع سابق، ١/ ٥٥.

والإجازات، فالمقري عندما شاع خبر خروجه إلى الحج بين علماء وطلاب منازل الركب بادروا بملاقاته ومنهم من كتب إليه بالإجازة قبل أن يصل إليهم، فبمجرد ركوبه البحر من الجزائر صوب تونس تطاير الخبر إليها فبادر علماؤها يطلبون إجازاته بما لديه من أسانيد فأجاز منهم إمام جامع الزيتونة الشيخ محمد بن أبي بكر التونسي (ت ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م)، بإجازة مكتوبة [١] .

وعندما وصل مصر التف حوله من طلاب الأزهر وعلمائه من أملى عليهم الحديث ولقنهم العقائد وأجاز منهم : محمد بن سالم السنهوري، وأحمد بن محمد القاضي[٢]، ونور الدين الأجهوري[٣]، ومحمد نور الدين الرشيدي[٤].

كما التقي في مصر بعلماء من خارجها تصادف مجاورتهم بالأزهر، فأجاز منهم محمد المسراتي القيرواني (ت ١٠٦٥هـ / ١٦٥٥م)[٥]، وعبد الباقي الحنبلي الدمشقي (ت ١٠٧١هـ / ١٦٦١م)[٦]، وعبد القادر بن غصين الغزي (ت ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م)[٧].

وكما أجاز المغاربة علماء مصر وطلابها استجازوهم أيضاً ببعض العلوم والمؤلفات التي حرصوا على تحملها عنهم واعتزوا بهذه الإجازات ورصعوا رحلاتهم بنصوصها.

فالمقري المغربي على علو منزلته إلا إنه طلب الإجازة في مصر فأجازه الشيخ أحمد الصديقي المالكي إجازة عامة [٨] .

---

(١) محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م، ص ص ١١٦، ١١٧؛ قرود: الدور الثقافي ...، مرجع سابق، ص ٨٥.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ١٧٦، ١٧٧.

(٣) المقري: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ١١١ – ١١٦.

(٤) المقري: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ١٤٩– ١٥٢.

(٥) المقري: الرحلة...، مصدر سابق، ص ١٧٦؛ مخلوف: شجرة النور ...، مصدر سابق، ص ٣٠٥.

(٦) المحبي: خلاصة الأثر ...، مصدر سابق، ٢/ ٢٨٣ – ٢٨٥.

(٧) المحبي: خلاصة الأثر ...، مصدر سابق، ٢/ ٣٤٧.

(٨) إجازة مؤرخة في ١٢ ربيع الأول ١٠٢٩هـ/ ١٨ فبراير ١٦٢٠م، والصديقي المالكي كان موسوعيًّا أخذ عن كبار علماء عصره توفي ١٠٤٥هـ (١٦٣٥م). المقري: الرحلة...، مصدر سابق، ص ٨٣؛ المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ٢٣٤ – ٢٣٦.

وممن كانت له عناية بالإجازات الأزهرية التاودي ابن سودة الذي وثق علاقته بكبار علماء الأزهر أمثال شيخ المالكية علي الصعيدي، حيث أجاز كل واحد منهما صاحبه بما لديه من أسانيد[١]، وأجازه شيخ الشافعية أحمد الدمنهوري بكل ما لديه من مسموع ومقروء وبما أخذه دراية ورواية[٢]، وأما مفتي الحنفية حسن الجبرتي فأجازه بكتب المذهب بعد أن قرأ عليه طرفاً منها، كذلك أجازه مفتي الحنابلة أحمد المقدسي بعد أن قرأ عليه[٣].

ويصرِّح الورثيلاني بأسماء من أجازه في مصر مثل الشيخ خليل المغربي ت ١١٧٧ هـ – ١٧٦٣م والشيخ الصعيدي[٤].

وفي بلاد الحجاز نال العلماء المرافقين للركب المغربي حظوة وكانت لهم مكانة بين علماء وطلاب الحرمين ففي المدينة المنورة أجاز العياشي وأُجيز أيضاً فممن أجازه شيخه الثعالبي، وأجازه قارئ المدينة أبو الحسن الديبع في القراءات بأسانيده عن شيوخه[٥]. وكذلك أجازه الكوراني إجازة عامة[٦]، وفي الوقت نفسه أجاز الكوراني بالحديث المسلسل بالأولية[٧].

وممن أجاز الورثيلاني في المدينة المنورة خطيب الحرم المدني الشيخ إسماعيل قال عنه: "أجازني بخط يده في سائر العلوم" [٨].

كما أجاز الشيخ السمان، التاودي ابن سودة بصحيح البخاري، وأجازه الشيخ إبراهيم بن أسعد مفتي المدينة بكل ما عنده[٩].

---

(١) التاودي ابن سودة: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٤/ ب.

(٢) إجازة مؤرخة في ٢٦ جماد الآخر ١١٨٢هـ / ٨ نوفمبر ١٧٦٨م ممهورة بتوقيع الدمنهوري رحمه الله. التاودي ابن سودة: الرحلة، مصدر سابق، لوحة ١٧/ أ.

(٣) التاودي ابن سودة: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ١٩/ أ، ٢٠/ أ.

(٤) الورثيلاني: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٥٨٤.

(٥) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٦٧؛ ١/ ٤٧٦، ٤٧٧.

(٦) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٩٧.

(٧) ونص الإجازة موجود مفصلاً في الرحلة. العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٨٩– ٤٩٢.

(٨) الورثيلاني: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ٣٤١.

(٩) التاودي ابن سودة: الرحلة ...، مصدر سابق، لوحة ٦/ أ؛ ١٢/ ب.

وفي مكة المكرمة كانت لهم إجازات لمن أخذ عنهم من الحجازيين أو المجاورين أو حتى الواردين للحج من الأقطار المختلفة، مثلما أجاز المقري مفتي دمشق الحنفي الشيخ عبد الرحمن [١]؛ كما أجاز من أئمة الحرم المكي عبد الرحمن بن عيسى المرشدي، وتاج الدين أحمد بن إبراهيم المكي، وحنيف بن عيسى، في الصحاح والمسانيد بعدما سمع من بعضهم[٢].

وفي الوقت نفسه طلب علماء وطلاب المغرب الإجازات من علماء البلد الأمين ومجاوري بيت الله الحرام حيث أخذ الثعالبي الحديث عن تاج الدين المالكي، وعبد العزيز الزمزمي، وزين العابدين الطبري وأجازوه[٣].

وبعدما قرأ الإسحاقي على المحدث محمد بن عقيلة أوائل كتب الحديث طلب منه أن يجيزه فأجابه الشيخ وكتب له الإجازة، وأجازه محمد بن فضل الله الطبري بإجازة كتبها على ظهر أحد مؤلفاته التي أهداها له، وبعدما سمع من محمد تاج الدين المفتي الحنفي بالحرم أخذ منه إجازة بسنده المتصل بعبد الله بن عمرو بن العاص إلى النبي صلى الله عليه وسلم [٤].

المبحث السادس: التأليف:

ومن الأنشطة العلمية التي اشتغل بها العلماء المغاربة على طريق الحج وفي محطاته التأليف، فتركوا تراثاً علمياً معتبراً من المؤلفات في السيرة والمدائح النبوية وفي الفقه لا سيما ما يخص الحج وبعض النوازل والرقائق والأذكار، وغير ذلك من فروع العلم والمعرفة، وتطالعنا مدونات هؤلاء الرحالة بأسماء المؤلفات التي انتجتها قرائحهم على الطريق وفي المحطات خلال مواسم الحج في فترة الدراسة.

---

(١) المحبي: خلاصة الأثر ...، مصدر سابق، ٢/ ٣٨٠ – ٣٨٩؛ المقري: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ١٦٨، ١٦٩.

(٢) المحبي: خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ٢/ ٣٦٩، ٤٥٧، ٤٦٤؛ المقري: الرحلة...، مصدر سابق، ص ص ١٢٦ – ١٢٨.

(٣) المحبي: خلاصة الأثر ... مصدر سابق، ١/ ٢٤٢؛ ٢/ ٤٢٦، ٤٢٧؛ ٣/ ١٦١– ١٦٦؛ العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ٢/ ١٢٨.

(٤) الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٢٩٤– ٢٩٨.

وأول من يطالعنا المقري المغربي بعدد من المؤلفات على طريق الحج منها "فتح المتعال في مدح النعال"[١] بدأه في مصر وأتمه في المدينة المنورة في رمضان ١٠٣٣هـ / يناير ١٦٢٤م، وقد ذكر أن فكرة تأليف هذا الكتاب وردته أثناء رحلته من المغرب إلى مصر عند لقائه ببعض العلماء جرى بينهم حديث عن نعال النبي صلى الله عليه وسلم الأمر الذي دفعه لهذا التأليف الذي تناول فيه النعال النبوية وفضلها مع جمع ما قيل في مدحها من قصائد[٢].

ومنها كتاب : "النفحات العنبرية في وصف نعال خير البرية" وهذا الكتاب يعتبر المسودة التي جمع فيها المرويات المتعلقة بشأن النعل النبوي في القاهرة سنة ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠م، ثم اعتمد عليها في المدينة المنورة عند تدوين كتابه الذي "سماه فتح المتعال في مدح النعال وهو لا شك أكبر وأشمل"[٣].

وأما كتاب "أزهار الكمامة في أخبار العمامة" وهو تأليف عن عمامة المصطفى صلى الله عليه وسلم كتبه في المسجد النبوي عند الحجرة النبوية وفي اتجاه رأسه الشريف وختمه بأشعار جميلة وكان انتهاؤه منه في شوال ١٠٣٣هـ / يوليو ١٦٢٤م، ومن كتبه أيضاً "الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين"[٤] وهو عبارة عن أرجوزة شعرية في السيرة النبوية جمع فيها أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم يقال أنه ألفها في الحرمين الشريفين [٥].

ومن أهم مؤلفات المقري كتاب "روضة التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعاينة والتكليم"، ويظهر من خلال العنوان أنه أيضاً في السيرة النبوية ويرجح أن تأليفه كان في الحجاز أو القدس الشريف وهو من المفقودات[٦].

---

(١) أحمد المقري : فتح المتعال في مدح النعال، مخطوط في المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم ٢٢٠٢، لوحة رقم ١.

(٢) إمحمد قرود : الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٣) القادري : نشر المثاني ...، مصدر سابق، ٢/ ١٢٩٦.

(٤) لا يزال مخطوطاً ومنه نسخة في دار الكتب المصرية ، رقم ٢٤٢٦٦ ن .

(٥) المحبي : خلاصة الأثر...، مصدر سابق، ١/ ٣٠٣؛ محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٣٠٠.

(٦) الكتاني: فهرس الفهارس...، مصدر سابق، ٢/ ١٤.

كما ألف المقري عدة مؤلفات في علوم اللغة منها "التحفة المكية في شرح الأرجوزة الألفية"، وهو أرجوزة في النحو وضعها في المسجد الحرام[١]، وله عدة قصائد منظومة في "مناسك الحج" افتتحها بمدح الحرم المكي ثم أعقب ذلك بشرح مفصل للمناسك من دخول مكة مروراً بطواف القدوم، والسعي وصولاً إلى جبل عرفات والنفرة منه نحو مزدلفة ثم منى ورمي الجمرات حتى العودة[٢].

وفي القاهرة نظم "إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة" وهو مؤلف في العقيدة يتكون من ٤٧٢ بيتاً، كما نظم "القصيدة المقرية" وهي تزيد عن مائة بيت ذكر في بدايتها أحوال الناس في الدنيا بين السعادة والشقاوة ثم عرج على الأندلس وما حدث فيها مما لا تكاد تصدقه العقول حيث ذهب بهم الزمان وتحولت أحوالهم[٣].

ولا يسعنا أن نغفل الكم الهائل من القصائد التي نظمها المغاربة في مكة والمدينة شوقاً لهما قبيل الوصول أو توديعاً عند المغادرة والخروج أو ما يخص المدائح النبوية وهي كثيرة منها قصائد للعياشي في مدح المدينة المنورة وساكنها عليه الصلاة والسلام[٤].

وهناك بعض المؤلفات التي كتبها العلماء المغاربة بسبب نازلة نزلت أو خلاف وقع في مسألة، فعندما وقع الخلاف بين العلماء المغاربة المرافقين للسيدة خناثة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل العلوي[٥] وأم السلطان عبد الله بن إسماعيل وبين المجاورين في مكة

---

(١) إمحمد قرود : الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) المقري: الرحلة إلى المغرب والمشرق...، مصدر سابق، ص ٦٦؛ إمحمد قرود: الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق...، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٣) عبد الرحمن عزي: التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية...، مرجع سابق، ص ٩.

(٤) العياشي: الرحلة ...، مصدر سابق، ١/ ٤٦٨– ٤٧٠.

(٥) تولى سلطنة العلويين في المغرب الأقصى لمدة سبع وخمسين سنة وكان قبلها نائباً عن أخيه الرشيد سبع سنين. فهو صاحب أطول مدة من بين حكام هذه السلطنة، إلا إن أيامه كانت مثالاً من ناحية الأمن وتمام الضبط فلم يجد أهل الفساد مجالاً خلال فترة حكمه من ١٠٨٢– ١١٣٩هـ . أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣١٥هـ): الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب بالدار البيضاء، د –ت، ٧/ ٤٥، ٩٩.

وتكلموا في شأن الدار التي اشترتها وأوقفتها على طلاب العلم لتدريس البخاري وغيره في المسجد الحرام وقال بعض المغاربة المجاورين لا يجوز شراء بيوت مكة ولا بيعها، فأرسلت السيدة المذكورة إلى الإسحاقي تسأله أن يبين لها وجه الصواب فكتب لها رسالة بالجواز وفق ما جاء في كتب الفقه المعتمدة عند المالكية والشافعية[١].

ولما ورد على ابن الطيب أثناء مقامه في مكة سؤال يتعلق بالقهوة وأحكامها، جمع في ذلك تأليفاً مستقلاً حافلاً سماه "الاستمساك بأوثق عروة في الأحكام المتعلقة بالقهوة" ورتبه على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، لكنه ضاع عندما تعرض الرحالة للسرقة و أخذه السارق [٢].

كما ألف الإسحاقي أيضاً مختصراً في فقه الحج، عرف فيه الحج لغة وشرعاً وذكر أدلة فرضيته من الكتاب والسنة والإجماع، وأركانه، ثم أوضح فوائد بيان الأخطاء الموجبة لذبح الهدي، ثم عقد فصلاً عن حدود الحرم، وختمه بمجموعة من الأسئلة والأجوبة في مسائل الحج[٣].

---

(١) الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٣١٦ – ٣٢٠.

(٢) أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي (ت ١١٧٠هـ): رحله الفاسي ١١٣٩هـ – ١١٤٠هـ" مخطوطة " بقسم المخطوطات في المكتبة المركزية ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، وهو نسخة عن الأصل الموجود في دار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة، تحت رقم ١٤٠٣ تاريخ تيمور، لوحة ٥٧/ أ، ب

(٣) سجل الإسحاقي هذا المختصر الفقهي الرحلة. الإسحاقي: الرحلة ...، مصدر سابق، ص ص ٣٢٠ – ٣٤٧.

الخاتمـــــة

بعد هذا العرض للأنشطة العلمية المصاحبة لقوافل الحج المغربية خلال العصر العثماني، يمكن أن نقرر أن القوافل كانت بمثابة مدارس متحركة مزدهرة بأنشطتها المختلفة من تدريس أو سماع في حلقات الدرس بالمراكز العلمية أو مناظرات ومساجلات.

وقد توصلت الدراسة إلى بعض النتائج التي يمكن سردها في النقاط التالية:

١- إن قوافل الحج المغربية كانت في الأغلب بمثابة مدارس متحركة مزدهرة بأنشطتها المختلفة من تدريس أو سماع في حلقات الدرس على الطريق أثناء السير وفي المراكز العلمية.

٢- حرص الحجاج على استثمار الوقت الطويل الذي تستغرقه رحلة الحج في تحصيل العلم.

٣- من لم تسعفه المجالس العامة في منازل القوافل قام بزيارة العلماء في بيوتهم للاستفادة منهم بصورة منفردة بعيداً عن زحام الحلقات وضوضاء المجالس ومزاحمة العوام.

٤- اهتم الطلاب والعلماء بالأسانيد والإجازات توثيقاً لما يقومون به من أنشطة؛ ولتقوية الأواصر العلمية فأجازوا وأجيزوا وضمنوا مدوناتهم هذه الإجازات على اختلاف أنواعها.

٥- لا يجانبني الصواب إذا قلت بأن جميع المرافقين للركب كان يعود إلى بلاده مسروراً بتحصيل المعارف سروراً لا يقل عن فرحته بأداء الفريضة، وأن هذه الرحلة كانت فرصة بما توفر فيها من علماء وما دار خلالها من لقاءات وما حصل من كتب وإجازات وأسانيد قلما تجتمع في غيرها.

٦- مما يثير العجب تفرغ بعضهم عقليًّا وتفتحه ذهنيًّا لتصفيف بعض المؤلفات التي تناسب مقتضى الحال في الطريق وبعض المحطات، حيث أنتجت قرائحهم بعض المؤلفات وجاءت في أغلبها تتويجا لما نزل بهم من نوازل أو دار بينهم من مناقشات ومساجلات خلال الطريق وفي منازله.

٧- حرص العلماء على اتباع أدب الحوار الراقي الذي هدفه الوصول إلى الحق في المسائل المطروحة على مائدة النقاش بالإقناع المعتمد على الدليل والحجة.

وأخيراً، فقد رصدت هذه الدراسة ذات الصفحات المتواضعة النشاط العلمي على طريق الحج المغربي خلال الفترة المذكورة، معتمدة بالمقام الأول على ما كتبه المرافقون للركب من العلماء المشاركين في أنشطة هذه الحركة العلمية في مدوناتهم المخطوط منها والمطبوع فهي التي أمدتنا بالنصوص التي أثرت هذا العمل ووثقته بالإضافة إلى بعض المصادر والمراجع الأخرى التي ساهمت في استكمال الصورة.

قائمة المصادر والمراجع

(أولاً) المصادر العربية المخطوطة:

(١) الإسحاقي. محمد الشرقي بن محمد. رحلة الإسحاقي صحبة الأميرة خناثة بنت بكار زوجة مولاي إسماعيل سلطان المغرب الأقصى (سنة ١١٤٣هـ/١٧٣١-١٧٣٢م) مخطوط بالخزانة الملكية بالقصر الملكي في مدينة الرباط، المملكة المغربية، تحت رقم ١١٨٦٧.

(٢) التاودي. محمد الطالب بن سودة المري: الرحلة، وفيه سند التاودي بموطأ مالك وصحيحي الإمامين، نسخة في قسم المخطوطات، مكتبة الحرم النبوي بالمدينة المنورة عن المكتبة الأزهرية، تحت رقم ٨٨٦ تاريخ، ورقم ٥٣٥٨٢ مصطلح حديث.

(٣) أبو راس. محمد بن أحمد بن عبد القادر. عجايب الأسفار ولطايف الأخبار، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم ٢٣٣٢ .

(٤) أبو العباس الفاسي. أحمد بن محمد بن عبد القادر رحلة من مدينة فاس إلى مكة والمدينة (سنة ١٢١١هـ /١٧٩٦- ١٧٩٧م)، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٥٤ جغرافيا، ميكروفيلم ٧٥٢٦ .

(٥) العياشي . أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر (١٠٣٧- ١٠٩٠هـ / ١٦٢٨-١٦٧٩م): التعريف والايجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز، مخطوط بالخزانة العامة في الرباط، المملكة المغربية، ضمن مجموع تحت رقم ٤٣ ك.

(٦) ابن الطيب الفاسي. أبو عبد الله محمد (ت ١١٧٠هـ): رحله الفاسي ١١٣٩هـ – ١١٤٠هـ" مخطوطة " بقسم المخطوطات في المكتبة المركزية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، وهو نسخة عن الأصل الموجود في دار الكتب والوثائق المصرية بالقاهرة، تحت رقم ١٤٠٣ تاريخ تيمور.

(٧) المقري. أحمد بن محمد. فتح المتعال في مدح النعال، مخطوط في المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ٢٢٠٢.

(٨) المقري. أحمد بن محمد. مقتطف من أزهار الرياض في أخبار عياض، جـ ١، مخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر، محفوظ تحت رقم ٢٩٦.

(ثانياً) المصادر العربية المطبوعة:

(١) البغدادي. إسماعيل بن محمد (ت ١٣٩٩هـ): هدية العارفين– أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ذيل على كشف الظنون ج٢، وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية إستانبول ١٩٥١م، نسخة بالأوفست لدار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د – ت.

(٢) التنبكتي. أحمد بابا. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه وفهارسه مجموعة من طلاب كلية الدعوة الإسلامية، إشراف وتقديم: عبد الرحمن بن عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط ١، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م.

(٣) الجبرتي. عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٣٧هـ). تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: أد– عبد الرحمن عبد الرحيم عبد الرحمن، منشورات مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، مطبعة دار الكتب المصرية، ج١، القاهرة ١٩٩٨م.

(٤) الحضيكي. محمد بن أحمد (ت ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م). طبقات الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.

(٥) ابن أبي دينار. محمد. المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧م.

(٦) أبو راس. محمد بن عبد الكريم بن عبد القادر الجزائري. فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المكتبة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٢م.

(٩) العياشي. عبد الله بن محمد بن أبي بكر، أبو سالم (١٠٣٧-١٠٩٠هـ / ١٦٢٨-١٦٧٩م). الرحلة العياشية (١٦٦١ – ١٦٦٣م)، تحقيق: د / سعيد الفاضلي، د/ سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، أبوظبي الإمارات، ٢٠٠٦م.

(١٠) الفاسي المغربي. يوسف بن عابد بن محمد الحسيني (ت ١٠٤٨هـ). رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت، حقق نصها وعلق عليها: إبراهيم السامرائي، عبد الله محمد الحبشي، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.

(١١) القادري. محمد بن الطيب. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي، أحمد توفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٨٦م.

(١٢) الكتاني. محمد عبد الحَيّ (ت: ١٣٨٢هـ): فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ج١، بيروت، ١٩٨٢م.

(١٣) المرادي. محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني ١١٧٣ – ١٢٠٦ هـ / ١٧٦٠ – ١٧٩١ م. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ج٤، دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، ط٣، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

(١٤) المحبي. محمد أمين الحموي الدمشقي (ت ١١١١هـ). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت د– ت.

(١٥) مخلوف. محمد بن محمد (الشيخ). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٧ م.

(١٦) المقري. أحمد بن محمد. رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠٠٤م.

(١٧) المقري. أحمد بن محمد. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.

(١٨) ابن منظور الافريقي. محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) . لسان العرب، دار صادر ، ط٣، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ.

(١٩) ابن ناصر الدرعي. أحمد بن محمد. الرحلة الناصرية، ج١، طبع بالمطبعة الحجرية بفاس سنة ١٣٢٠ هـ.

(٢٠) الناصري. أحمد بن خالد (ت ١٣١٥هـ). الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب بالدار البيضاء، د – ت.

(٢١) الورثيلاني. حسين بن محمد. نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، أو الرحلة الورثيلانية، تصحيح: محمد بن أبي شنب، مطبعة بييرفونتانة الشرقية، الجزائر، (د – ت).

(ثالثاً) المراجع العربية:

(١) التازي. عبد الهادي (دكتور). رحلة الرحلات، مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، ٢٠٠٥م.

(٢) سعد الله. أبو القاسم. بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المجلد الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.

(٣) سعد الله. أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.

(٤) الطمار. محمد بن عمرو. الروابط الثقافية بين تلمسان والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٣م.

(٥) عبد الرحيم. عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني، (١٥١٧– ١٧٩٨م) منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢م.

(٦) محفوظ. محمد. تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

(رابعاً) الرسائل الجامعية غير المنشورة:

(١) قرود. إمحمد. الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق العربي في القرن ١١هـ / ١٧م، من خلال ثلاثة نماذج: أحمد المقري، عيسى الثعالبي، يحي الشاوي النائلي، مذكرة ماجستير غير منشورة، تخصص العلاقات بين المشرق والمغرب في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢، ٢٠٠٩ – ٢٠١٠م.

(٢) قريزة. ربيعة. علماء جزائريين بمصر في الفترة العثمانية (القرن ١١ – ١٢هـ / ١٦ – ١٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢، ٢٠١٠ – ٢٠١١م.

(خامساً) بحوث الدوريات والندوات:

(١) سمير. مشوشة. ابن حمادوش الجزائري وأبو راس الناصري يؤرخان للعلاقات التجارية بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن ١٨م، بحث منشور في مجلة المعارف الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، مجلة دورية دولية محكمة، العدد ١٢، الجزائر.

(٢) عزي. عبد الرحمن (دكتور). التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار من تأليف الحسين بن محمد الورثيلاني ١١٢٥–١١٩٣ (هجري)، دراسة تم إعدادها لمؤتمر جامعة فيلادلفيا، الأردن حول "ثقافة التواصل" نوفمبر ٢٠٠٩م.